آذار
وُلِد هذه السنة مرتين

وصال تقة

مركز الثقافة العربية
Arab Cultural Center

آذار وُلد هذه السنة مرتين

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذة الرواية، أو أي جزء منها أو تخزينها في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلها بأي شكل من الأشكال، أو ترجمتها إلى أي لغة أخرى دون إذن خطي سابق من الناشر.

العنوان: «آذارُ وُلِد هذه السنة مرّتين»

تأليف: وصال تقة

الناشر: مركز الثقافة العربية - تركيا / إسطنبول

الصفحات: ١٠٠

القياس: ١٤ × ٢٠

الطبعة: الأولى، ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م.

رقم المعيار الدولي: ٤-٢٢-٦٤٨٣-٦٢٥-٩٧٨

ملاحظة: الكتب والدراسات التي ينشرها المركز؛ لا تعبِّر بالضرورة عن رأيه، وإنما تعبِّر عن آراء مؤلفيها واجتهاداتهم.

مركز الثقافة العربية

للنشر والإنتاج التعليمي والثقافي

Arab Cultural Center – Türkiye / Istanbul
E-mail: arabculturecenter@gmail.com
TEL: + **905526092022**

آذارُ وُلِد هذه السنة مرّتين

وصال تقة

مركز الثقافة العربية
Arab Cultural Center

إهداء

إلى الطفلة التي قاومت دمعة نزَّت من عينيها وهي تحكي لي تنمر زملائها عليها بالفصل، لا لشيء إلا لأنها سورية في بلد الغربة..

إلى الطفل المغترب الذي لقنني درسا جديدا في الشهامة والكرامة والإباء؛ وهو يخبرني أنه زعيم الفصل، وقائد الأصدقاء بعد معارك خاضها بذكاء..

إلى كل من أجبرته الحروب والحياة على الاغتراب..

رنـا

"كِسْرة خبز"

- "حينما كنتُ صغيرةً، رَمَقَتْنِي[١] حوريةٌ ذاتَ مساء؛ وأنا أُطالعُ السماءَ بحثًا عن غيمة." قلتُ يوما لصديقتي وهي تبحث عن سر الخط الأسود المحفور بين عينيَّ ووجنتيَّ.

"مسحتِ الحوريةُ بيديْها الساحرتين على عينيَّ الصغيرتين، أردفتُ[٢]، وأخبرتني أنني منذ تلك اللحظةِ؛ أستطيع أن أرى الغيوم متى أردت."

نظرتْ إليَّ صديقتي في دهشةٍ وذهولٍ وأنا أمرّرُ أناملي أحاولُ إخفاءَ بقايا الدّموع على خدّي.

أكملتُ في ثقة:

"ومنذ ذلك الحين، كلما أقبل الشتاء، كان ميلادُ المطرِ من عينيَّ."

لم تُصدِّقني صديقتي.

من سيُصَدِّق أنَّ المطرَ فعلا ينبُت من جفنيَّ؟

من سيصدِّق أنّني لستُ أذكرُ منْ طفولتي سوى الغيمِ، والمطرِ، والبحرِ، والدمعِ، والقذائفِ.. وإحساسٍ غريبٍ يُباغتُني[٣] كلَّما رُمْتُ[٤] التَّناسي؛ مزيج من خوفٍ وغربةٍ ووحدةٍ وغضبٍ وثورةٍ عارمةٍ. صورٌ ضبابيةٌ مُشَوَّشَةٌ لطائرات تقذف شيئا سحريا يُحوّل في رمشةِ عين المبانيَ إلى ركام، والحدائقَ إلى براكين، والأطفال إلى وحوشٍ صغيرةٍ بوجوهٍ مُشوَّهةٍ مُفزِعةٍ، وأجسادٍ بلا أطراف.

---

(١) نظرت إليّ.
(٢) أضفتُ.
(٣) يفاجئني.
(٤) ردتُ.

الصّورةُ الواضحةُ الوحيدةُ التي عَلِقتْ بذهني؛ وَمَضَاتٌ من رحلةِ النزوح.. رذاذُ البحرِ الذي كان يداعبُ وجهي فأضحك في حبور، ثم أنتظر في لهفة هبّة أخرى منه أتعرض لها مغمِضةً عينيَّ، فيستغلُّ أخي جاسر الفرصةَ كي يُدَغْدِغَنِي. تُخرس ضحكتَنا منْ وقتٍ لآخر زجرةٌ من أبي، أو شزرةٌ[٥] من أمّي كي نَكُفَّ عن التَّشْوِيشِ على الحزنِ الذي كان رفيقَ الرحلة، ونحفظَ للرّحيل ولِلْعَوِيل هيبتَه.. في حين كان الرذاذُ عند الكبارِ كلهم حولي هطْلا يتدفّق من جُفونهم. كان بدايةَ الرحلةِ غزيرًا ينحدرُ بقوَّة فوق خدودِهم، وقد يصاحبُه عويلٌ مبحوحٌ لم أكنْ أفهمُه، لكنّه سرعان ما انْحسر[٦]؛ تاركا خطوطَه السوداءَ على الخدودِ الملتهبةِ بِقَيْظِ[٧] تشرين وشمسِه المحتضِرة التي أصرَّت يومها أن تلفحَ الوجوهَ الكالحةِ، وأن تصهرَ الرؤوسَ العاريةَ، وأن يُحرقَ لهيبُها الجفونَ..

هكذا هي الكثيرُ من الأشياء حينما تقرّر الرحيلَ، تُصيبها نوبةُ اشتعال، ثم تغرقُ في تفاصيل الأُفُول[٨].

كنَّا على مشارفِ مارسين[٩]، بمركبٍ قد تراصَّت فيه الأجسادُ كحبّات بازلاء؛ حينما عجزَ الأملُ المترائي أن يُبقيَ على قيْده جسدا متآكلا، قد تكالب عليه المرض والشيخوخة والحزن، وهَصَرَ العطشُ آخرَ وريدٍ نابضٍ به. امتدّتْ يدُه المرتعشةُ تصارعُ شبحا يُحاول التهامَ ما تَبَقَّى من أحشائِه،

(٥) نظرة غاضبة بمؤخرة العين.
(٦) تقلَّص وقلَّ.
(٧) حرّ.
(٨) النهاية والغروب.
(٩) مدينة بالجنوب التركي.

فخنقه حتى وجد برْدَ لُعابه في يدِه. الْتَفَتَ العجوزُ حولَه مذْعورا، ثم انْحنى في حذرٍ يلتقطُ شيئا وَضَعَه خلسةً في جيبه.. في المساء، أهداني كسرةَ الخبزِ التي عثر عليها صُبحا كي أكفَّ عن البكاء. التقتْ عيناه بعينيَّ تحضُناني، وبريقُ فخْر يَزِنُّ منهما أن آثرني بآخر لقمة كان من الممكن أن تُبقيَه حيّا. كان نبضُه متوقفا مذ أَلْجَأَتْهُ رغبتُه المُلِحَّة في الحرية والانعتاق إلى أن يَعْبُرَ البحرَ إن اختارَ أن يظلَّ واقفا، لكنه كان يُكابر. بعد مناورات بينه وبين الموت؛ قرر أن يتبرَّع لي، وقد قضمني الجوعُ، وصار صمتي بعد صراخٍ عقيمٍ يُنبئ عن قرب اسْتِحَالَتِي[١٠] طعاما سائغا للحيتان، تبرَّع لي بآخر كِسرة خبز كان يحتفظ بها لدوائر الزمان، ثم أسلم الروحَ.

ظلَّتْ جُثَّتُه يوما كاملا وليلةً تنتظر قرارا بشأنها، وينتظر مَن حولَها معجزةً يُطوى فيها اليمُّ[١١]، أو ينشقّ فتتفتَّق عنه أرضٌ تليقُ قبرا لجسدِه الطاهرِ. وحينما أَبَتِ الأمواجُ إلا أن تثورَ، وقرَّر البحرُ أن يُبقيَ على هَيْبَتِهِ وَصَوْلَتِهِ، وفاحتْ بالمكان رائحةٌ كَزَفرة السمك، وضاق المكانُ بجسدِه المُتَكَلِّسِ؛ حمله ابنُه من ذراعيه، وزوجتُه من رجليه.. نظرا إليه نظرةً خاويةً خانعةً تعتذرُ له عن هذا الوداع البائس.. ولأنَّ قلبَه كان أوسعَ من أن يحتويه قبرٌ تختلج فيه الأضلاع؛ كان البحرُ بامتداده قبرا له.

❖❖❖

(١٠) تحولي.

(١١) البحر.

رَمَيَاهُ، ثم جلس كلٌّ في ركنِه، مستحيا من فعلته لا يرتدُّ إليه طرفُه[١٢] من الخجل، يتساءل إن كان من حقِّه الآن أن يحزن وقد اقْترف ما اقْترف.. إن كان رصيدُه المتبقِّي من الدّمع قادرا على أن يُعوِّض الراحلَ حقَّه في الإقبار، وفي التأبين كما كلِّ الموتى، وأن يوفيه حقَّه في أن يُحزَنَ عليه كما كل الراحلين.

ولأن هذه الصورة كانت أوضح من أن تَمْحُوَها الذاكرة؛ فإنها أصبحت تهجُم عليَّ في كل مرة، تُذكِّرني أنني لستُ سوى بقايا كسرةِ خبزٍ ماحلةٍ.

تسرَّب العجزُ إلى المكانِ.. تسيَّدَ الصمتُ.. تبادل الكبارُ نظراتِ اعتذارٍ مَنْ لا حِيلةَ له.. انقضَّ سؤالٌ على رؤوسهم الخانعةِ: على مَنِ الدَّوْرُ؟

ارتجف المركبُ فجأة. لم يكن للبحرِ أن يتركَ العجوزَ دون أنْ ينتقم له. لَعْنَتُه أصابتْنا؛ فانقلبَ الزَّوْرَقُ. تعالى الصراخُ المُخْتَلِجُ بالدّعاء. تعلَّقَ الصغارُ بالكبارِ يرومون في أحضانِهم الإغاثةَ. كيف لِمَنْ لا يملكُ نجاتَه أن يكونَ طوقَ نجاة؟ تكوَّمْتُ حول عُنق والدي كما خُنفساء.. لم تُفْلِتْنِي يدُه، لكنَّها أفلتَتْ يدَ أخي جاسر. تسمَّر الزمانُ يرقُب في صمتٍ جريمةَ البحر، في حين شقَّ جسدُ جاسر النحيلُ طريقَه بين الموج. سمعتُ الموجَ يُقَهْقِهُ، كان جاسر يدغدغه كما كان يفعل معي فقط منذ لحظات. فجأةً سكنَ البحرُ. اختفتِ القهقهة، واختفى معها جاسر.

❖❖❖

(١٢) لا يستطيع أن يحرك عينه.

تَوَدُّ الأخصَّائيةُ النفسيةُ التي قررتْ إدارةُ المدرسةِ أن تُحيلَ مِلفّي عليها، والمديرُ التربويُّ الذي يَمثُل الآن أمامي أن أعترفَ على الأقلِّ بخطئِي، وَهُما على أتمِّ الاستعدادِ أنْ يصفحا؛ فيُسْقِطَا عنّي عُقوبةَ الطّردِ من المدرسة، بَيْدَ أنّني جلستُ في صمتٍ أراقب حركاتِهما مثل كركوزتين دون أن ينفذَ كلامُهما إلى باحة سمعي. اعْتَدْتُ أن أجعلَ "وضعي على الصامتِ"، أو على "وضعِ الطائرة" كلما قابلتُ شخصا مُمِلًّا. كلامُهما يَمْرُقُ في الفضاء، فوق رأسي تماما وقد طَأْطَأْتُه؛ دون قدرةٍ على أن يستقرَّ في أذني. تنفَّسا الصُّعداءَ إذ ظنَّا أن انحناءةَ هامَتي[١٣]؛ دليلٌ واضحٌ على بدايةِ تجاوبي مع خُطبتِهما، وبأنَّني أُعبِّر بذلك عن خجلي ممَّا حصل، في حين كنتُ منشغلةً بمراقبةِ حذاءَيهما؛ أتخيّل كيف سيكون شكلُ المديرِ إن اضطرَّ يوما إلى أن يلبسَ حذاءَ الأخصائيةِ الأزرقَ بكعبِه العالي؛ يتجوَّل بين الفصول، يأمر وينهى، ويزبد ويرعد، وكمْ من علبة مناديل ورقيّة ستحتاج الأخصائيةُ كي تحشوها بحذائه إن اختارت يوما أن تلبسه. أقاوم الرغبةَ في القهقهة.

تخترقُ أذني عبارةٌ متمرّدةٌ أَبَتْ إلا أن تستوطن بهما:

-تحيةُ العلم يا رنا؛ صلاةٌ من غير وضوء، ونُسْكٌ[١٤] من غير دير[١٥]... والتخلُّف عنها جريمةٌ تستوجب عقوبةً بحجمها...

وَدِدْتُ في تلك اللحظة بالضبط؛ فقط لو أبرمَتْ أمي والأخصائيةَ عقدَ اتفاق كي لا أتوه.

---

(١٣) رأسي.

(١٤) تعبُّد.

(١٥) مكان للعبادة.

توبّخني أمي كلّما أخبرتُها أنّني لا أذكرُ من حماة[١٦] سوى بقايا خيمة، وَوَتَدٍ متآكل خَذَلَ[١٧] خيمتَنا في يوم مُثلجٍ شاحبٍ، وكلبٍ عجوز أجربَ؛ كلّما حاول أن ينبحَ؛ خرج صوتُه نشازا[١٨] فتحوَّل إلى مُواء. تَشْزُرُني، تُخْرِسُني[١٩]، ثم تبحثُ في جُعبتها عن سؤالٍ آخرَ تتحايلُ به على ذاكرتي؛ علَّها تُريحُ قلبَها بصورةٍ تَخْضَلُّ[٢٠] فيها البساتين، وتتدلَّى عناقيدُ العنب في عُنفوان على الحيطان، ويسخو[٢١] الياسمينُ بعبقٍ ينشره على الآكام. لكنَّني في كل مرّة كنتُ أَخْذُلُها.. لستُ أذكرُ شيئا من كلّ ذاك..

وقبْل أن تستسْلم ليأسِها منّي، ومن خُلُوّ ذاكرتي ممَّا منَ الممكنِ أن يُثلج صدرَها؛ تحملُ قلمَ رصاص؛ وترسمُ لي على صفحةٍ بيضاءَ علمًا[٢٢] خفَّاقًا فوقَ قمَّة جبل، يزدانُ صدرُه بالنجوم، ويتبخترُ فيه لون السلام ولون الحياة يُبَدِّدَان لون الأحزان. تُدَنْدِن، علّ اللحنَ يوقظُ ذاكرتي الخاملة:

حُـــماةَ الـــديارِ علـــيكمْ ســـلامْ

أبَـــتْ أنْ تـــذِلَّ النفـــوسُ الكـــرامْ

أنظرُ إليها في استغرابِ منْ لمْ يفهمْ عن أيّ الحُماة حديثُها.

تسترسل. يبحُّ صوتها. تَغْلِبُها الدموعُ وهي تردّد:

---

(١٦) مدينة بسوريا.

(١٧) تخلى عنها، المقصود هنا سقط الوتد فأسقط معه الخيمة.

(١٨) خارجا عن اللحن.

(١٩) تُسكتني.

(٢٠) تندى وتبتل كناية عن كثرة عشبها.

(٢١) يجود.

(٢٢) يقصد به علم سوريا.

عـــــرينُ العروبـــــةِ بيـــــتٌ حَـــــرام

وعـــرشُ الشّـــموسِ حِـــمَىً لا يُضَـــامْ

فتلوذ إلى صمت دفين أعجز عن فهمه.

وتوبّخني الأخصائيةُ الماثلةُ أمامي أنَّني اسْتَخْسَرْتُ في العَلَمِ الأحمر[٢٣] وقفةً تليقُ بمَقامه.

كانت الساعةُ يومَها تُشير إلى الثامنة حينما اصطفَّ الطلبة بساحة المدرسة في انتظار تحية العلم اليومية. نسيمُ الصباحِ يداعب الوجوهَ، وصوتُ المكبّر يُعلن عن اسم الطالبة التي ستتقدم إلى المنصة كي تُصعد العلمَ. لحظاتُ صمتٍ دون أن يتقدَّم أحدٌ. اشْرَأَبَّت[٢٤] الرؤوسُ في فُضول تُوَشْوِشُ وتُتابع ما يحدُث:

-كانتْ منذ قليل هنا.

-كنّا معا، بحافلة النقل ذاتها.

النداء يتكرر. لا أحد يتقدم.

قبل أن يتمَّ اختيارُ اسمٍ جديدٍ، كانت "إيلا" تكشِف اللغزَ:

-آنستي، إنها مُختبئة بالمرافق الصحية.

لم يُقنعْها أداؤها؛ فقرَّرتْ أن تُعزِّزَه بمزيدِ توضيح:

-وكذا تفعل كلَّ يوم خُفيةً كي لا تشارك في التحية.

عيَّنوا بسرعةٍ عوضا عني طالبةً أخرى تقوم بالمهمة، في حين تكفَّلت مدرِّسةٌ بإخراجي من جُحري وتسليمي إلى الإدارة.

---

(٢٣) يقصد به هنا علم تركيا.

(٢٤) امتدت وارتفعت لتنظر.

تحلَّق المدرِّسون حولي، كلٌّ يحاول أن يحصل مني على تبرير لما حصل. كنتُ صامتةً، أنظر في وجوهِهم دون أن أراهم، أنتظر في خنوعٍ مصيري المحتوم. تراءى لي أبي يوبخ، ويتوعد، ويُذكّرني بما كان يحذّرني منه كل لحظة:

-قد أقبل يا رنا أن تكوني متوسطةَ التحصيل، متواضعةَ الأداء في دراستك؛ فأنا أحبّك كما أنتِ، لكن أبدا لن أغفرَ لك أن تسوءَ أخلاقُك، أو أن تتطاولي على المقدَّسات.

تتفكَّكُ صورتُه لتحلَّ محلَّها صورةُ أمي وهي تنظر إليَّ في عتاب. صوتُ المديرِ يُبَدِّد صورتَها قبل أن تحرّك شفتيْها بالتوبيخ:

-اقعدي يا رنا.

جلستُ، وجلس معي خوفي، وثورتي، ووجعي الدفين.

التحق المدرِّسون بفصولهم. وضعتُ حقيبتي فوق ركبتي، شبكتُ أصابعي، وتابعتُ في سكونٍ حركاتِ المديرِ المتوترة. كان يضعُ أمامَه ملفًّا يتفحّصه في تمعُّن؛ حينما طُرق البابُ فجأةً. امرأةٌ في عِقدها الرابعِ تَتَضوَّع[٢٥] أناقةً. عطرُها المخمليُّ استوطَن بالمكتبِ قبل أن تدخلَ. مكثْتُ مدةً أحاول إعادة تركيبه؛ مزيج من توتٍ أحمرَ، وفانيليا، ومسكٍ أبيضَ. تساءلتُ إن كان بإمكاني أن أضيف إليه رشةً من بُنٍّ أو من ليمونٍ أخضر. ابتسمتُ، رغم كل شيء، لفكرة أنّه بإمكاني أن أصنعَ يوما ما ماركتي الخاصة للعطور بنكهات من اختياري، لكنْ سُرعان ما أعادني تبادلُ التحية بينهما إلى المكتب. وضعتْ حقيبةَ يدِها فوق المنضدةِ، فتحتْ زرَّ معطفها، ثم جلست قُبالتي تُناوب بصرَها بيني وبينَه؛ تحاول أن

(٢٥) تفوح.

تُخمِّن سببَ مُثولي بمكتب المدير، واستدعائها للحضور على وجهِ السرعة، في حين استمر هو في تقليب أوراقِ الملفِّ، وكأنه يبحثُ عن دليل يقطع كلَّ الشكوك في إدانةِ يَصْعُبُ نفيُها، ويصعبُ أيضا إثباتُها في غياب أدلّةٍ واضحةٍ دامغةٍ عن سبْقِ إصرارٍ وترصُّدٍ لما حصل. تفحَّصتْ وجهي قبل أن تسألني عن اسمي، تُحاولُ كسرَ الجليدِ الذي خيَّم بالمكتب، ثمّ التفتتْ إليه تَستفهِمُ منه ما حصل.

لم يَدُرْ بخلدي لِلحظة أنه سيأتي يومٌ أجد فيه نفسي مضطرةً للاختباء كي لا أحيِّيَ العلمَ، لولا أنّ "إيلا" اختارت أن تمارسَ طقوسَ الانقلاب على قلبي الذي أسكنتُها فيه طوال ثمان سنوات. تَشَارَكْنا نزقَ الطفولة وبهجتَها، وثورةَ المراهقة وتَمَرُّدَها، وملكتْ أسراري، واستأمنَتْني على فؤادها.. ثم فجأة، ودون سابق إنذار، أعلنتْ عليَّ الحربَ، وألَّبت ضدي صديقاتها يتنمَّرن عليّ، ويردّدن على مسامعي، قبل كل تحيَّةٍ صباحيَّة وبعدها:

- هذا العلم لنا.. لنا وحدنا.. نحنُ أحقُّ منك بهذا العلم، وبهذا الوطن، فَعَلَامَ تحاولين منازعتَنا حبَّه؟

من سيصدِّق أنني فعلا أحبُّه، مثلهن، وربما أكثر؟

أعشقُه.. وأعشقُ تحبير صوت مآذنه، وبحرَه، وعبقَ البطولات بين زوايا قِبابه ومساجده، وصوتَ النوارس تُحيِّي أصباحَه، ولوحةَ الأفق حين شروق وحين غروب شمسِه، وحلكةَ السماء إذا ما جَنَّت أُمسياتُه، ولحنَ البواخرِ، وتراقصَ الأضواء على أديم بوسفوره، ولوعةَ المواجد إذا ما حرَّكت دراويشَه.

ثمانُ سنوات؛ هي كل ما أعيه من هذا العالم، لم أشعرْ فيها للحظة أنني دخيلةٌ، وبأن هذا الوطنَ ليس لي، وبأنه ليس لي الحق في حُبِّه، والإخلاصِ له، والافتخارِ بِتَنَسُّمِي عبقَ تُرْبَتِه.. ثمان سنوات؛ أردِّد النشيدَ نفسَه بكل حُبٍّ وخشوع، لكنهن مُصرَّات على إقناعي بأنَّ هذا العَلَمَ، وإن شاركتُهنَّ طقوسَ تبجيله، وأداءَ مراسيم الولاء له؛ لا يمكنُه أن يمنحَ قلبي تأشيرةَ الانتماء.

ثمان سنوات، أضع فيهنَّ كفي على صدري كلَّ صباحٍ، وأُغمض عينيَّ، وأصدح ملْءَ أملي، وملْءَ الطُّهرِ والبراءةِ في عينيَّ، وملْءَ الحبّ الكامنِ في فؤادي؛ بكلمات كانت البلسمَ لكل الجراح:

"لا تخفْ، لن تُخمَد هذه الرايةُ الحمراءُ المرفرفةُ في كبد السماء"*(٢٦)

فأنسى القاذفات، والطائرات، والقنابل، والبراميل، والدّبابات.. أنسى البحر والخيام.. أنسى الخوفَ.. ثم أبتسم، وأحلّق في العلياء أعانق الأحلام.. أعانق السلام..

أُصَدِّقُ أنني فعلا حرَة، وأراني نسْرا يجوب الفيافي يحتضِن الفضاءَ وأنا أترنَّم:

"قد عشتُ حرا منذ كان الكون، حرا لا أزال
عجبا لمعتوه يصدِّق أن تقيدني سلاسل أو حبال
أنا مثل سيل هادر دفع السدود إلى نهايات الزوال
دوما أفيض، فأملأ الأرجاء، أقتحم الجبال"

(٢٦) العبارات المكتوبة بخط بارز كلمات النشيد الوطني التركي مترجما إلى العربية..

لكنهن استخسرْن فيَّ هذا الحبَّ.

تأخذُني الرجفة وأنا على مشارفِ نهايته، فترتعد فرائصي وأنا أردّد:

"كل ما أخشاه؛ ابتعادي عن بلادي، أو فراق أو جفاء"

ثم ها أنا ذي يُبعدني الجفاء، فأصير بدون هوية مرتين.

فكيف يسألونني اليومَ الاعتذارَ عن رفضي تحيةَ علمٍ لم يعدْ يُضمِّد جراحاتٍ تنكؤُها كلَّ يوم صديقةٌ تَبَيَّنَ لها بعد ثمان سنوات رفقة ومحبة؛ أنّني لا أسمو إلى أن أكونَ صديقة، وبأن مكاني الحقيقيَّ بحماة؛ ببيتي الذي حطَّمته الصواريخ والبراميل؟ كيف أخشع في محرابه؛ وكل يوم أؤدي فيه ثمنَ جريمة لم أقترفْها؛ ماءَ وجه مسكوب على أعتاب كلِّ من لم يَرُقْ له أن يحلِّق طيفي بالقرب منه؟

كيف لقلبي الذي استفاق بصفْعتها أن يستمرّ في الانخراط في حُبّ ممنوع مستحيل؟ كيف لي أن أُبْقِيَ على انتمائي لِما كنتُ أظنُّه وطني وعَلَمي، وأن أصدحَ مِلْءَ قلبي بحبه؛ وهو حكرٌ على أهله؟

"ولسوف تبقى شعلة حمراء من غير انطفاء

إنها كوكب شعبي، سوف يبقى في العلياء

وهي ملكي، ملك شعبي لا جدال أو مراء"

هو ملكُها، وملكُ صديقاتها، وملكُ شعبِها الذي حُقَّ له أن يحبّه ويفتخر به، وأن يخشى مَنْ حوله أن ينازعَه هذا الحبّ وهذا الافتخار..

❖❖❖

لم أستطع الانخراط في مداولات المديرِ والأخصائيةِ الاجتماعية. لم

أسمعْ ما رسَا عليه الاتفاقُ بينهما. صوتُ الأخصائية الناعم يَسْحبُني إلى حيثُ نتائج المحاكمة:

-لديك مهلةٌ يا رنا في أن تأخذي قرارَك. ليس مطلوبا منك سوى الاعتذار، ومن ثَمَّ أن تَعِدِينَا ألاّ يتكرّر الأمر. يشفع لكِ عنْدنا خُلُقُكِ الطيبُ، ونجابةٌ ونباهةٌ يُنَوّهُ بها مُدَرّسُوكِ، وإلا لكان لنا معكِ حديثٌ آخر.

أصارعُ قطرة مطر نزَّت من عيني؛ باغتتني بها غيمة وأنا أردِّد:

"لستُ سوى بقايا كسرةِ خبزٍ ماحلةٍ، حَرَمَ منها عجوزٌ يوما نفسَه كي يمْنحني الحياةَ.. ففيمَ ضرَّهم أن أقفَ لعلمٍ، أو أن أرفضَ الوقوف؟

❖❖❖

جاسر

آذارُ وُلِدَ هذه السنةَ مرّتين،

مرةً كما عادته في أن يخلُف كلَّ شُباط[٢٧]، ومرةً من غصنٍ احْتَشَدَتْ كلُّ أسباب الموت كي تُغرقَه، لكن الحياةَ أَبَتْ إلا أن تعبَق من أوراقِه، وأن يَتَبَرْعَمَ الربيع من زهرةٍ جنينٍ؛ الماءُ الذي يرويها كاد يبْتَلِعُها لحظةَ عُتُوٍّ وتَجَبُّرٍ. ومنذ ذلك الحين؛ أصبح آذار[٢٨] يُشرق من صدري كلّما لاح، ويستعيرُ من عَبقي عطرَ بَتَلَاتِ الوردِ المُتَرَقِّبةِ زخَّةَ نورٍ كي تملأَ الكونَ شذى وحياةً.

حدث ذلك منذ تسعِ سنوات أو ربما أقل قليلا.. كنت بسنتي السادسة حسب شهادة الميلاد، وسنتي الخامسة بحساب الوجع، والقذائف، ونسائم الحرية، وتواشيح الانعتاق.

رأيتُ الموتَ..

رأيتُه بعينيَّ، ولمستُ صقيعَه، ورجفتَه، وهلوستَه، ووجعَه، وصمتَه، والخوفَ، والسكونَ، والضعفَ، والرجاءَ، والاستسلامَ، وتلمُّسَ رحمة الله.. لم يُخطئني شيء من تفاصيله؛ سوى السَّكْرَةِ التي منها النهاية..

لكنَّهُ نجا مني..

رأيت قناديلَ الدّمع في عيونِ زغابى[٢٩] لا حَبَّ لهم ولا شجر، وسمعتُ اصطكاكَ الأسنان من الخوفِ والبردِ، وشهِدتُ بالقُرب مني قَرْقَرَةَ رضيعٍ كان قبل دقائق فقط يبكي في حِجْر أمّه يطلب جرعةَ ماء، لكنّ الجرعةَ التي هبَّت لتسعفَه؛ كانت بِحَجْمِ بحر، فغصَّ بها عِوض أن

(٢٧) الشهر الثاني من السنة الميلادية، فبراير.

(٢٨) الشهر الثالث من السنة الميلادية، مارس.

(٢٩) الفراخ التي لم ينمُ ريشها بعد. والمقصود هنا الأطفال الصغار.

تسقيه. البحر ذاته جَمَعَنَا كما جَمعنا قبلها المركبُ نفسُه، عدا أنّ الموتَ المتربصَ نَهَشَهُ، وخلَّدني ذكرى لميلاد الربيع.

كان قد مرّ على خروجنا من حماة أسبوعان ونيِّف، ولو كان جبران خليل جبران[٣٠] بيننا؛ لكنتُ أخبرتُه أنّنا، مثله، وطيلةَ أسبوعين، قد "افترشْنا العشبَ، والْتَحَفْنَا بالفضاء، واتَّخَذْنَا الغابَ منزلا دون القصور"، لكنَّ الألمَ الذي بات يسكننا كان أشرس من أن يتركنا ننسى ما قد مضى، والقادم المجهول الذي كان ينتظرنا؛ حتَّم علينا ألا نزهدَ في شيء نحن أصلا لم نكن نمتلكه.

تكوَّمتْ أجسادُنا الأربعةَ عشر داخل عربةِ نقلِ دواجن مساءَ يومٍ كانتِ فيه السّماء قد أمطرتْ قنابلَ، فَنَبَتَ الدحنون[٣١] بين أزقَّة حماة وشوارعِها، وأعلنتْ صافراتُ الموتِ الثَّمِلِ بدماءِ الأبرياءِ عن هروبٍ مستعجلٍ، يَسْتَنْقِذُ فيه منْ بقيَ ما تبقّى منهم. تمَّ الاتفاقُ سريعا مع أحدِ المهرِّبين كي يُوصلنا إلى طرطوس[٣٢]، لكن بدا له خلال الرحلةِ أن يُلغيَ الاتفاقَ، فقد جاءتْه أنباءٌ بأنّ المراقبةَ صارتْ أكثرَ تشديدا على كلِّ المعابر. ولأن البطولةَ تأتي أحيانا كثيرة في صورةِ إرغام؛ كنا مُضطرّين إلى أن نهربَ إلى الأمام، وأن نُكملَ رحلةَ العبورِ راجلين إلى غياهب المجهول. تتبَّعنا السواقي، وتسلَّقنا الصخورَ، وتحمَّمنا بالخوف، وتنشَّفنا بالتشرد، وابتلعْنا الأيامَ والليالي إلى أن وصلنا طرطوس ذاتَ ليلٍ. لم يكنْ بإمكان

(٣٠) هو الشاعر اللبناني صاحب قصيدة "المواكب" (ويطلق عليها أيضا "أعطني الناي وغن") والتي اقتُبس منها هذا الكلام.

(٣١) الدحنون: زهر أحمر يسمى أيضا شقائق النعمان. والمعنى هنا انتثار الجثث مثل نبتة الدحنون.

(٣٢) مدينة سورية على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

أحدٍ أن يدخلَها إلا بِلَيْلٍ! كانت خائرةً مثلَنا، قد أنْهَكَهَا الوداعُ وزفُّ الراحلين للمجهول، شاحبةً موجوعةً، لكنّها، بِسِرٍّ من ربها، باتتْ ليلتَها تلك مُسْتَغْفَلَةً عن العيون. ولأن اللهَ قدَّر لنا البقاءَ؛ جاءنا الفرجُ في هيْئة زَوْرَقٍ، صاحِبُه كان على وشْكِ الإبْحار فجرا إلى مرسين.

كل شيء كان صامتا بعد أن تناوب الخوفُ، والتّعبُ، والجوعُ على قَضْمِ الجُفون. تتعالى ضحكاتي وأختي الصغيرةَ رنا من وقتٍ لآخرَ، سُرعان ما تُخرسها النّظرات. الريحُ كانت هادئةً تجري بما يشْتهيه المركبُ، والشّمس كانت تُرسل أشعتَها في حُنُوّ، وحتى الحناجر كانتْ قد كَفَّتْ عن العويلِ وغرقتْ في التسابيح. يتعالى صوتٌ من حين لآخر بالدّعاء كلّما اهتزَّ المركبُ أو تمايلَ، فَيُؤَمِّنُ الآخرون في حُرْقة وتوسُّل.

كانتِ السماءُ يومَها لَعُوبًا، قد أرسلتْ شمسَها الورديةَ تبتسم للوجوهِ الكالحةِ، حتى إذا ما أمِنَّا لبسمتِها؛ سلَّطتْ أشعتَها بِسخاء تهصر الرؤوس. وحينما تراءت لها قبابُ مرسين؛ فاض سخاؤها؛ ففتحتْ أبوابَها بماء منهمر، وارتفعَ الموجُ فالتقى الماء بالماء على أمْر قد قُدر، ثمّ كان أنِ انْقلب المركبُ بمن فيه.

كانتْ تنْتقم.

تَمَسَّك الكبارُ بحافته، في حين انْتَثَرَ الصّغارُ على أديمِ اليمِّ كحقل ياسمين. تشبَّثْتُ بذراعِ والدي مدة، حتى إذا ما تجمَّد كفّاي الصغيران؛ أفلتُّه، وحالَ الموجُ بيني وبينه، ولم يكن من جبلٍ يعصمني، سوى غصنٍ مدَّه لي كي يسْحبني به، لكنّ الماء اسْتَفْرَد بي واختار لي مسارا آخر. رأيتُ أختي رنا متشبثةً بأبي؛ تتدلّى من عنقه كعنقودِ عنب، ولمحتُ والدتي تستنجدُ وتصيحُ وقد تشبَّثتْ بحبل. تعالى الصياحُ، وشقَّ الفضاءَ عويلُ

النّكالى. سلَّمتُ جسدي النحيلَ لِلْيَمِّ يسحبُني في هدوء، ثم غاض الكونُ في الظلام والسكونِ.

استفقتُ على جَلَبَةٍ وصياحٍ. أصواتٌ متداخلة، وعباراتٌ غيرُ مفهومة. اقترب منّي رجلان بلباسٍ أصفرَ، سمعتُهم يتحدثون بلغةٍ لم أعهدْها من قبلُ، لكنّني شعرتُ فجأة بالأمان. رأيتُ صورتِي بعدَها مِرارا على التلفاز. تصدَّرتِ الصحفَ والجرائدَ لمدة، وطارتْ بها مواقعُ التواصلِ تخبرُ عن شجاعةِ وإنسانيةِ المُنْقِذِين، وعن ذلك الطفلِ الذي أَزْهَرَ الربيعُ من عينيه البريئتين، ونجا بأعجوبة منهُ الموتُ.

لم تتحدثْ بعدها والدتي أبدا عن نجاةِ رنا، ولا عن نجاتها ونجاة أبي، لكنّني سمعتُها مرارا تَحكي في فخرٍ، ودونَ مَلَلٍ لِمَنْ حولَها، أنني مَجْبُولٌ على الحياة. تَرْوي بكلِّ شغفٍ قصةَ نجاتي من براثينِ البحرِ، تَشْفَعُها بقصّتي في بطنِها حينما توقفتْ حركتي فجأةً في الأسابيعِ الأخيرةِ، لِيُخْبِرَهَا الطبيبُ أن تتأهّب لولادةٍ مُبَكِّرةٍ لجنينٍ فارق الحياةَ في الوقت بالضبط الذي كان عليه أن يُعانقها، لكنّ إصراري على أنْ أحيا خيَّب الظنون، وجعل الطبيبَ يشهد أنني طفلٌ معجزةٌ.. ثم تبتسم ابتسامة تغصُّ بها عيناها؛ فتَنْبت حبَّتا لؤلؤ في محجريها المتعبين. تُنهكها الذكرى؛ فتحكي في اقتضاب عن البرميل الذي شوَّه كلَّ أطفال الحارة، وسلِمت ملامحي الرقيقةُ من شظاياه.

منذ ذلك الحين، علمتُ أن الحياة وجهٌ آخر للموت. وأنّ الربيعَ يُولد من صدري كلّما لاح.

-لَكَ لُغْزٌ يُحيّرنا يا جاسر، كلما أردْنا كشفَه؛ أحالنا على وجهِكَ البسّام.

يسألني رفاقي عن سرّ البسمة التي لا تفارقني، وعن صدري المفتوحِ لتصاريف الأقدار، وعن أملٍ يُتعبهم كيف تَخْضَلُّ به حياتي رغم كلِّ أسباب العجزِ والألمِ والموتِ، فأكتمُهم سري. من سيصدِّق أنني سليلُ بطولةٍ تأبى عليّ نظرات الإشفاق؟ من سيفهمُ أنَّ من نجا منهُ الموتُ؛ كيف للحياةِ أن تنجوَ منه؟

يومها، كنا نجلسُ أربعتُنا على حافةِ البوسفور، أنغامُ كَمَانٍ وساكسفون خلْفنا تُحيِّي شمس الغروب. شابان تركيان يسخوان بلحن تركيّ حزين، وبضع مارة يقفون من وقت لآخر يَحْتَفُون بالأشجان، وحديثٌ شفيفٌ بيننا كما كلِّ أحاديثِ الأصدقاء. الليل ينزح على أديمِ البوسفور في انْسياب، والشمسُ المُغتالةُ تُريق آخر أوردتِها على صفحةِ الماء، فَتَخْتَلِجُ بِلَحْنِ الموجِ، وعزْفِ الكَمان، ونعيقِ النّوارس التي كانت تحوم حول الزوارق الصغيرة المُحَمَّلة بوجبةِ صيد. عَلَا نُواح مركبٍ يعلن عن الرحيل. في الوقت بالضبط الذي سلَّم فيه أشرعتَه للرياح؛ نورس يلاحق حظَّه من عطايا البحر نهايةَ يومه المتعب.. يصطدم بالشّراع؛ فَيَخِرُّ بالقرب منا تُلَوِّنُ ريشَه الدماءُ.

-مات.. لن ينجو.. الاصطدام كان قويا.. يقول تميم.

-جناحُهُ كُسر، عاجزا صار عن الطيران.. يردُّ عليه لؤي.

-سيغرق.. سيكون لقمةً هنيئةً للحيتان.. يُعَقِّب إيفان.

صوتُ ارتطامي بصفحةِ الماء أخْرَسَهُمْ فجأة. قاومَني مفزوعا بُرهةً، ثمّ ما لبِث أن اسْتسلم حينما شعر بالأمان. سحبْتُه إلى الحافةِ في بطء.. جفَّفتُ ريشَه بقميصي الذي نزعتُه قبل العوْم.

سَـكَنَتِ الألحـانُ فجـأة خلفـي، وتحلقـتِ الجمـوعُ حـولي تُتـابعُ في فضول.

- بسرعة، أريد ثوبا كي أَكُفَّ النزيف.

تَلَعْثَمَ أصدقائي يحاولون فهمَ ما أقول، وقبل أن أُعيد الطلبَ؛ كان أحدُ الموسيقيين يُسلِّمني قميصَه، ثمّ ينْخرطُ في إسعاف الطائرِ الجريحِ بما يستطيع.

حينما أَسْرَجَتِ المراكبُ والمطاعمُ أنوارَها؛ بدا في الأفقِ بياضٌ يبدِّدُ حلكةَ السّماء؛ يتمايلُ، يترنَّح، يَعْوَجُّ مسارُه، ثم يستقيم..

كان يطير..

❖❖❖

تميم خطيب

"لا شيء يستحق"

رأيتُه يطير.. رأيتُه يَفْرِد جناحَه الكسيرَ، يتمايلُ لكنَّه طار.. وأنا الذي كنتُ مُوقنا من أنه قد فارق الحياةَ، فالاصطدامُ كان أقوى من أن يتحمَّله جناحاه المَخْمَلِيَّان.

تلك الإشراقةُ في وجه جاسر وهو يراه يبتعدُ في شموخ؛ هي نفسُها لُغزُه العنيدُ الذي يُحيّرني، ويقينُه من أن لمسةً من يديه الحانِيَتَيْنِ ستُطْعِمَانِهِ الحياةَ؛ كانت أقوى من كلِّ تَخْميناتي وتحليلاتي.

صورة يديه المُدرّجتيْن بدماءِ الطائرِ الجريحِ، وأنْفاسِه المتصاعدةِ وهو يُوقف النّزيف لم تفارقْني طيلةَ ليلتي.

سِرْبُ نوارس قد حام حول جسدٍ يطفو على وجه الماء. فَرَكْتُ عيني.. توضَّحتِ الصورة أكثر فرأيتُ جاسرا يصارع الموجَ ويداه تنازعان المناقير، ورأيتُ الموتَ بالقرب في وشاحِه الأبيضِ الوقورِ ينتظر ساعةَ الانقضاض على روحه، ثم فجأة جاء من بعيد نورسٌ تتموَّج السحب خلف جناحِه الكسير، وقد اختلط الدم القاني بلون ريشه الناصع، تابعت في دهشة اقترابَه الحثيثَ. تسارعتْ دقاتُ قلبي.. تُراه سينخرط في الْتِهَام الصيدِ الثمينِ؟ لكن ما إن حطَّ بالقرب؛ حتى رهِبته المخلوقاتُ الثائرةُ، فتولَّت[٣٣] تنعق في ذعر. حملَ الطائرُ جاسرًا على ظهره. حلَّق بعيدا.. ثم عاد لِيَضعه على كرسيٍّ بحافة البوسفور.

استيقظتُ مفزوعا على صوت والدتي تستعجلني:

- تميم، استيقظ بسرعة أرجوك، عمك وأبناؤه على وصول..

صورة جاسر والطائر في الحلم مازالت تُطاردني حتى بعد الاستيقاظ. انتشلني من محاولة تأويله صوتُ والدتي مرة أخرى:

---

(٣٣) عادت.

- تميم.. أحضر لي الصحونَ بسرعة. ابحث عنها بالصندوق الذي جلبْتَ لي منه أمس الأكوابَ. علبة بيضاء شفافة وجوانبها حمراء، بداخلها صحون مذهَّبة.

-تميم، إن عثرتَ على الفناجين؛ فاجلُبها لي أيضا معك. أسرع رجاء، لا أريدهم أن يَصِلوا قبل أن يكونَ كلُّ شيء جاهزا.. "

طلباتُها المترادفةُ تُربكني، وتكرار عبارة "أسرع" تُفقدني متعةَ التَّخْمِين وفكّ الألغاز التي باتت تصاحبني كلما طلبتْ مني والدتي أن أُحْضِرَ لها غرضا من كوْمة الصناديق المبعثرة هنا وهناك كصخور متناثرة على شاطئ بحر. ليس أمامي سوى أن أخمّن، فليس من علامةٍ تُثبت أو تنْفي وجودَ ما أنا بِصَدَدِ البحث عنه. أخمِّن وأحيانا أراهن، ثم أبحث.

كم يلزمني من الوقت كي أعثُر على العلبة، وكي أسْتَنْقِذَ الفناجينَ من كومة الأدوات والملابس والألعاب المُركبة المُتساكنة من مدة في الصندوق ذاته؟ عادةً عند كل انتقال جديد إلى الشُّقق السابقة؛ كانت والدتي تُحْكِمُ ترتيبَ الأواني، والملابس، وكل الأثاث في صناديق، تُلصق بكل واحد منها بطاقةً صغيرةً تُرشد إلى محتوياتها، لكن هذه المرة مجبرٌ أنا على أن أبحث عن جواربي بين الصحون، وعن الملاعق بين الألعاب، ولربّما عن لعبة لأختي الصغيرة بين رُكام الأواني. لم يكن لدينا الوقتُ الكافي كي نُرتب أغراضَنا قبل انتقالنا إلى شقتنا الجديدة. كنا في عجلة من أمرنا وقد صدر في حقّنا حكمٌ تعسُّفي بالإفراغ. ثم أيضا أمي قد أنْهكها التكرار، واستنْزفها إدراكها بأنها ليست سوى محكوم عليها بالغربة والنزوح.. كلما ظننا أن الشقةَ ملائمة، وأنه آن أوان الاستقرار بها؛ استجدَّ من الأحداث ما يجعلنا نبحث من جديد، وننزح من جديد، ونكون

مضطرين في كل مرة أن نقضي أوقاتنا إما في جمع الأغراض، أو في إعادة ترتيبها. ولأنها امرأةٌ عُجنت من صبر؛ فإنها تبدو متماسكةً رغم كل شيء.

اعتزلنا بيتَنا القديمَ منذ أسبوع تقريبا. هذه ثالث شقة نستأجرها خلال هذه السنة، والسادسةُ مذ وصلنا إلى تركيا منذ تسع سنوات. وأنا على يقين أنها لن تكون الأخيرة. خريطة البلد صرت أحفظها عن ظهر قلب، وأعلم بالضبط مواقع المدن، وخصائصها، ومميزاتها من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، وليس من عاين مثل من أُخْبِر.

استوطنّا بماردين بداية نزوحنا، ثم بغازي عنتاب قبل الاستقرار بإسطنبول. كنت صغيرا حينها، لكن ليس بالقدر الذي يجعلني لا أتذكر الكثير من التفاصيل. أقمنا بماردين سنة، لكن ظروف العمل هناك أجبرت والدي على البحثِ من جديد في أرض الله الواسعة. شجَّعه خالي على الانتقال إلى غازي عنتاب. أذكر جيدا يوم أن أتى ليستقبلنا بمحطة الحافلات. شهِقتْ أمي لرؤيته.. انهارت.. ضمّها إليه وانتحبا طويلا، ثم ما لبث أن أخرج منديلا من جيبه أخفى فيه وجهه لفترة خِلْتها دهرا، يواري قهرا بات مرسوما في عينيه، وعلى جبينه، وبين ثنايا الأخاديد المحفورة في قلبه. بكتْ والدتي طويلا عند المساء بعد أن هجعنا للنوم. سمعتُها تهمسُ لوالدي أنَّ شَكْلَ أخيها أرعبها؛ فقد شاخ. لم أفهم يومها لماذا أفزعها أن ترى عجوزا، هل العجائز يُرعبون؟ لكنَّني فطنت بعد سنوات إلى مقصودها، حينما بِتُّ أفهم ما يقصده الكبار حينما يتحدثون عن الخيبة أو الألم أو القهر. أو حينما يصمتون، وفقط يبكون. صرتُ أفهم معنى أن يرعبَك شكلُ عجوزٍ، لا لأنه عجوزٌ، ولكن لأنه شاخ قبل الأوان.

لم يَطُل استغرابي، وأسئلتي العنيدة سرعان ما بَرَحَتْنِي، وبِتُّ معتادا

أن ينفجر الكبارُ فجأة في نحيب طويل حتى من دون سبب، واعتدت أيضا أن أرى الناسَ يواسون بعضَهم بالبكاء. كنتُ أنا أيضا أفعلُ لمدة طويلة. أنفجرُ باكيا كي أُخبرهم أن قلبي عندهم، وبأنني لا أمتلكُ سوى الدموعِ لِأُوَاسِيهِمْ، وبأنني لا أودُّ أن أفهم الأسبابَ. لم أعدْ في حاجةٍ إلى فهمها.. إلى أن بَرَحَتْنِي فجأة الدموعُ، وصرتُ أعوِّضها بابتسامةٍ حينما اعتنقتُ فلسفةً جديدةً أسميتها "لا شيء يستحق"، فهمها كلُّ من حولي على أنها قسوةٌ، أو انعدامُ أحاسيس، أو عقدةٌ نفسية تجعلني لا أفصح عن مشاعري. كنت أستمع إلى تعليقاتِهم بالكثيرِ من السخريةِ المكتومةِ، دون أن أحاولَ إقناعَهم بشيء، أو أن أشرحَ لهم أسبابي، كنتُ مقتنعا حتى النُّخاع أن "لا شيء يستحق".

رأيتُ والدي يومَها أيضا يتوارى كي يمسح دموعَه. لم تفهم سنواتي السبع حينها لِمَ كل هذه الدموع. أليس لقاءُ الأحباب مما يبعث على الفرح والسرور؟ فلم يعقِّد هؤلاء الكبارُ الأمور؟ سخرت منهم لوهلة في أعماقي، وَوَدِدْتُ لو امتلكت من الفصاحة ما يؤهلني كي أُقنِعهم أن يَعْدِلُوا عن البكاء والعويل، وأن يملؤوا جوانحهم فرحا وبشاشةً، لكنني سرعان ما انهزمتُ وأنا أرى سيولَ الدموع تَجْرِفُني كي أشاركَهم أيضا مراسيمَ الأحزان. كانوا صامتين.. لا يتحدثون.. فقط يبكون. وَدِدْتُ حينها لو تحدث أحدُهم كي يفكَّ لي هذا اللغزَ. كي أفهمَ على الأقلِّ سببَ هذا العويلِ؛ فقد أصبحتُ شريكا لهم في هذه اللعبةِ. خَمَّنْتُ أنَّ بينهم كلمةَ سرٍّ لا يفهمها غيرُهم، وأنني مهما حاولتُ فلن أفهمَها، ببساطة لأنني لست من الكبار. بَكَوْا، وبَكَيْتُ معهم، وحملْنا أغراضَنا نرتبها بصندوق سيارة أجرة كبيرة. لم تكن حقائبُنا كثيرةً. سمعتُ والدي قُبيل النزوحِ يشدِّدُ على أمي ألا

تُثْقِلَنا بحمل كثير أغراض، فسفرُنا لن يطول، وعودتُنا ستكونُ قريبةً. سمعتُها تسأله عن ملابسِ الشتاء، فيردُّ عليها في حزمٍ ألَّا حاجةَ لنا بها؛ فالعودةُ ستكون قبل كانون الأول[٣٤]. تسعُ سنواتٍ كاملة ولم يأت كانون، ولم يأت الشتاء الذي كان أبي يأمل العودةَ قبله.

زوجةُ خالي كانت في استقبالنا. ليس بتلك الحفاوةِ التي يُستقبل بها عادةً الضيوفُ. لم نكن ضيوفا، وإنما مقيمون لأجَلٍ.. إلى أنْ نستقرَّ ويجدَ والدي عملا كي نستطيع أن نستقلَّ. لم يكن قد مرَّ على مجيئنا أسبوعٌ؛ حينما سمعتُها تتشاجر وخالي ذات مساء، وهو يحاول تَهْدِئَتَها وينبّهها أننا بالقرب نستمعُ. احتدم الكلامُ بينهما فصرخَتْ:

-لم أعد قادرةً على تحملهم. لم أخرجْ من سجن سوريا كي أجد السجنَ هنا أيضا، وببيتي.. أريد حريتي يا رجل ألا تفهم؟

حاولت أن أفهمَ سببَ صراخها وتذمرها، وغرقتُ في عبارتِها أحاولُ فهمَها. بحثتُ -عبثا- عن أثرٍ لقضبانٍ بكلِّ البيت، أو عن أسوار عملاقة كما أسوار السجنِ الذي حبس خلفها الوحشُ الحسناءَ كي لا تتملص من الزواج منه؛ تماما كما كان مرسوما بقصة من قصصي، لكنَّني لم أعثرْ على شيء من ذاك. كان بيتا عاديا بشبابيكَ وشرفاتٍ، وشمسٍ تتسربُ إليه كلَّ صباح فتملأ المكان بهجةً. لا يُشبه السجنَ في شيء. هؤلاء الكبارُ يُصِرُّون على استعمال عبارات ملغومةٍ مستعصيةٍ على الفهم.

لم أكن وحدي من اطَّلع على شجارِ خالي وزوجتِه، سمعتُ والدي يهمسُ لوالدتي أن تفتعلَ أنها لم تسمعْ شيئا، ويَعِدُها أنه سيتصرف، وبأنه أبدا لن يسمحَ أن تهانَ. سمعتُه يُهَدْهِدُها كطفلةٍ وهي تبكي في حُرقة، كتلك

(٣٤) الشهر الأخير من السنة الميلادية (دجنبر).

التي صاحبتْها طيلةَ الأيام قبلَ مجيئِنا هنا، إلى أن عمَّ السكونُ. لا أدري كم من الوقت مرَّ بعدها قبل أن أستطيع النوم. حلمتُ ليلَتَها بزوجة خالي بشعرٍ منفوشٍ تركب عصا سحريةً، وتشقُّ الفضاءَ بقهقهة مدويَّةٍ كما الساحرة الشريرة. كان خالي يلاحقها كي يَكُمَّ فمها وهي تردد: "أكره السجن! أكره السجن!" ورأيتُ والدي وقد شبكَ أصابعَه بأصابعِ والدتي وهما يطيران إلى أن خرجا من شباكِ الغرفةِ دون أن يشعر بهما أحد. كنت بالخارج أنتظرهما، ثم طِرْنا معا. رأيتُ الطيورَ والفراشات تلاحقنا في رحلتنا تلك، كنتُ أضحك ملء فؤادي لأنَّنا كنَّا نطير أسرع منها. عند الصباح، استيقظتُ على همس والدتي في أذني أن أستيقظ لأننا سنخرج. شربَ والدي القهوةَ مع خالي، في حين أصرَّت والدتي ألا تَطعم شيئا. أطْلَع خالي على موعد مع صديق استدعانا للإفطار عنده، ولم يلمّح لا من قريب ولا من بعيد إلى أنه قد كان شاهدا الليلةَ الماضيةَ على حصَّةِ إهانةٍ ومراسيمِ خيبةٍ لم يَدُرْ بِخلده للحظة أنه سيكون بطلا لفصولِها. بدا خالي يومها حزينا مهموما، يدافع كلاما محبوسا لا يستطيع أن ينطق به، وتذكرتُ فجأة انهيارَ أمي لما رأته عند وصولنا، وكلامَها وهي تصفه بأنه صار عجوزا. فجأةً صار عجوزا أيضا في عينيَّ، وبدا لي أنه شاخ أكثر خلال هذا الأسبوع.

كان والدي قد تواصل فجرا مع أحد السوريين ممن التقينا بهم خلال قدومنا من ماردين إلى غازي عنتاب، فتجاذبا أطرافَ الحديثِ طيلةَ الرحلة، وتحدثا عن الثورة، وعن أحوال البلد، وعن ظروف المهاجرين، ونمتْ بينهما صداقةٌ كما كل تلك الصداقات التي تنمو بسرعة وفجأة بين المغتربين. افترقا على عهد أن يبقيا على تواصل. هاتفه والدي يستفسره عن شقةٍ للإيجار، فهشَّ لهذه المكالمة، واتفق معه على أن نُفطر عنده

ببيته، ثم يصحبنا بعد صلاة الجمعة كي نعاين شقةً صغيرةً بحيٍّ لا يبعد كثيرا عن بيته، يريد صاحبها أن يؤجرها لمدة سنة.

استقبالُ زوجة صديق أبي الجديد لنا لم يكن يشبه في شيء استقبالَ زوجة خالي. حفاوةٌ ذكَّرتني بتلك التي كنتُ قد اعتدْتها حينما كنتُ أذهب إلى بيتِ أجدادي، أو باقي العائلة والأصدقاء حينما كنَّا بحلب. ربما لأنها كانت تعلمُ أنه لن يعدوَ أن يكون استقبالا لأجل إفطارٍ فقط، لا تليه تبعاتُ استضافةٍ طويلةٍ، أو التزامات إقامةٍ ممتدةٍ إلى أجلٍ غير مسمى كما كانت الحالُ مع زوجة خالي. أو لأنها كانت فعلا كريمةً، تُحِبُّ الضيوفَ. أو لربما لأنها تذكر جيدا أنها أيضا نازحةٌ، وبأنها في فترة من الفترات قد عاشت بالضبط ما نعيشه نحن الآن.

لم تجد السيدتان صعوبةً في الحديث والتعارف، فانتقلتا من حديث إلى حديث وكأنهما تعرفان بعضَهما منذ دهر، ورأيتُ، لأول مرة بعد سفرنا، ابتسامةً مشرقةً صادقةً تعلو محيا والدتي؛ فتُسْفِرُ عن وجه صبوح لطفلة.

هاهنا كان أول لقاء لي بجاسر.

تسلَّلت من مائدةِ الطعام خلسةً. أنقذتني حركة من جاسر ورنا كي أتبعهما؛ من أحاديث الكبارِ الملغومةِ التي تُعجزني أحيانا كثيرة عن فك شيفرتها. لم نعلم كم من الوقت مرَّ ولا كيف مر ونحن نلهو ونتقافز. استرددتُ في لحظةٍ طفولتي التي خلتها غادرتني خلال هذا الأسبوع تماما كما غادر الشبابُ خالي على حين غفلة منه. تعاقبتْ زياراتُنا وتناوبت، مرة ببيتنا الجديد، ومرة ببيتهم، ومرات نتنسم عبق التاريخ والبطولات بين المتاحف، والأسواق، والأزقة، والقلاع الشامخة التي هزم طوبُها صولةَ

السنين. رأيت حلب مرارا هنا. صادفتُها في ممرَّات السوق الطويل، وشمَمْت عطر شعرها المسدلِ على الزقاق والدروب.. رأيتُ قلعتَها السامقةَ فوق التلة تطاول الأمجاد، وبسمتَها المشرقةَ على وجوه العنتابيين الكُرماء. رمقتُها فحيَّتني، وضممتُها إلى صدري حتى غاب عطرُها بين حناياي، فصِرْت أراها في كلِّ الوجوه، وكلِّ الدروب، وبرحتني وخزةُ الحنين إليها ما دامت لا تغيب عن عينيَّ.

استقبلَنا مالكُ البيت بحفاوة، ثم ما لبثَ أن أقسم علينا أن يستضيفنا لشرب الشاي ببيته، ولتتعرَّف والدتي على زوجتِه.

كان هاكان أوغلو رجلا مسنًّا في عقده الثامن، يعيش وزوجتَه بنفسِ العمارة. يستغلُّ بيتا له، ويؤجرُ البقية. شُقَّتُه كانت طوبا؛ لكن بروح، أنيقة بأثاث بسيط؛ لكن ينم عن ذوق أصيل. امتلأتِ الجدرانُ بصور الأولادِ والأحفادِ، وتربَّعتْ بالهو صورةٌ له وهو يطاول الشباب، متأنقا في سُترة كحلية مطرَّزة، وقبعةٍ تركيةٍ، وحزام قُرمزيّ عريض. مفتولَ الشارب، منتفخَ الخدين، شامخَ النظرات مثل نجم من نجوم الأفلام التركية. ناوبت خفية عينيَّ بينه وبين صورته المعلقة على الجدار. لم يكن مختلفا كثيرا. نفس الشموخ، ونفس الحضور، ونفس الملامح، عدا ما ألحقه الشيب بشعر رأسه وشنبه.

حديثُ والدي معه أسفر عن صداقة بينهما. تحدَّثا طويلا عن كل شيء. عن الأحوالِ بسوريا، وعن المتغيرات بتركيا، وعن أحوالِ المهاجرين النازحين العرب، وعن علاقتِهم بالأتراك، وعن عمل والدي قاضيا، وكيف أنه اضطر إلى التخلي عن منصبِه هربا من الموت الذي كان يعربد في كل مكان، وخوفا من أن يضطر يوما إلى أن يبتاع بضميره وعزة نفسه كسرةَ

خبز أو علبةَ حليب. كان الرجالُ الثلاثة يبدو عليهم الاستمتاعُ بحديثِهم، في حين كان الملالُ قد تسرَّب إليَّ. انشغلتُ بالصورِ الماثلةِ أمامي أمنحُ لكل وجه اسما، وأبحث بين الصغار عن ذاك الذي من الممكن أن يصبح صديقا لي إذا ما زار يوما جدَّه. انتشلني من قصص الصداقات التي كنت للتو قد شرعتُ في نسجها صوتُهما يتواعدان على اللقاء صباح الاثنين الموالي لأجل إنهاء معاملة الاستئجار بمصلحة حكومية. قبل أن يودِّعنا؛ سلَّم لوالدي حزمةَ مفاتيح، وأخبره أننا نستطيع الانتقال إلى الشقة في الحين. همَّ والدي أن يسلِّمه جزءا من المبلغِ الذي اتفقا عليه؛ فانتفض غاضبا يلومه على الاستعجال:

- أمامنا أيام طوال؛ فعلام الاستعجال؟ كسبتُك ابنا وصديقا جديدا، وهذا أهمُّ من أي شيء آخر.

رأيت والدي يومها خفيفا.

في طريق عودتنا، أخبره صديقُه عن محل عراقي للأثاث، صاحبه من أعز أصدقائه. أخبره أيضا أنه يستطيع أن يُعَوِّلَ عليه في اقتناء كل ما يريده منه بالتقسيط.

آذان المغربِ تزامن وسيارةَ شحنٍ تحمل أثاثنا لبيتنا الجديد، وحوالي العاشرة مساء كنا نضع أفْرِشتنا تهيأ للنوم.

لم نَبِتْ تلك الليلة ببيت خالي.

لم نَبِتْ أبدا بعدها عنده.

❖❖❖

- تميم.. لقد تأخرت كثيرا.. هل وضعت الملاعق والشوكات فوق المائدة؟ احرص رجاء على أن تكون من نفس الشكل.

وضعت الصحون بسرعة فوق المائدة بعد أن مسحتها، ثم السكاكين والملاعق والشوكات، وحَثَثْتُ الخطى[٣٥] إلى المطبخِ حاملا الفناجين. ساعدتُ والدتي فيما تَبَقَّى من ترتيبات أخيرة قبل حضور الوافدين. كان يُفترض أن أصحب والدي لاستقبالهم، لكنَّني فضَّلتُ أن أبقى مع والدتي كي أساعدَها في تحضير الطعام، وترتيب ما يمكن ترتيبه من أثاث، وفي العناية بأختي الصغيرة. هاتف أبي يُعلن انطلاقَه من المطار. أقنعت جادا أخي أن يقيمَ معي بغرفتي، وأن يتركَ غرفتَه للؤي وهشام.

كنت أتأهَّبُ لحمل صناديق الأواني إلى المطبخ كي أشرع في ترتيبها؛ حينما رنَّ جرس الباب معلنا حضور الضيوف. تركت كلَّ شيء، وهرعتُ أستقبل عمي وأهله، وأحمل الأغراضَ معهم. طقوسُ البكاءِ المعتادةِ عند كل رحيل أو عودة أو لقاء بالأهل بِتُّ معتادا عليها. كانت عينا زوجةِ عمي متورمتين. أعلم جيدا الآن السبب. بتُّ أفهم الآن معاني الدموع، لكنني تحصنت جيدا ضد ثورتها. "لا شيء يستحق".

كان الأرز أول ما كان أسود، إلى أن مسَّته يد أمي فتوشَّح بالبياض، والنكهات تائهة في الملكوت تبحثُ لها عن مُسْتَقَرٍّ، فكان قرارُها بين يدي أمي؛ تمزجها بفيض قلبها فتُشَكِّلُها حُبّا بمذاق الطعام، وكانت كلما سَخَتْ وفاض عطاؤها، اشتهتْ أن تُطعمَ من حولها كبةً وكوسةً وسفرجليةً وأوراقَ عنب.

(٣٥) أسرعت.

على مائدة الطعام، احتشدتِ الأطباقُ شبهُ فارغة متكومةً بالقرب من الضيوف، تلاحقها عيناها بسرّهما المفرد، وابتسامتِهما التي توشك أن تَحتضنهم أن حققوا رغبتها الأثيرة في أن تحتفيَ، وأن تُكرمَ، وأن تُطعِمَ.

❖❖❖

استيقظتُ هذا الصباح على صوت الدولاب يُفتح ويغلق مرات، وعلى حركةٍ غير عادية بالغرفة. وجدتُ صعوبةً بداية كي أفهمَ ما يحصلُ، قبل أن أتذكرَ أن الآن بغرفتي شريكا، وبأنه عليّ أن أتهيأ منذ اللحظة لكلِّ الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة من طفل في السادسة من عمره، وبأنه بات لزاما عليَّ أن أتحمل تبعات قرار أن أُشركَه غرفتي كي يستطيع ابنا عمي الاستفراد بغرفة.

بعد الإفطار، اقترحت على لؤي، بعد استئذان والدي، أن يصحبني كي أعرِّفه على جاسر وإيفان، وكي أُطلعه على بعضِ معالم المدينة. رحَّب بالفكرة، في حين اختار هشام أن يبقى مع جاد. كان لؤي يكبُرني بسنة، وهشام يصغر جادا بسنة. تفرَّقنا لحزبين، ثم ما لبثنا بعد عودتنا من الخارج، بعد أن أمضينا يوما ممتعا، أن اتفقنا على أن يتحوَّل لؤي إلى غرفتي، وأن يعودَ جاد إلى غرفته صحبةَ هشام. هكذا على الأقل نضمن أن يستمتع كل واحد بالمشتركات مع قرينه.

على شاطئ البوسفور كان لقاؤُنا. لم يجد لؤي صعوبةً في الانسجام مع أصدقائي، ولا في أن يجعلهم ينبهرون به. كنتُ فخورا بكونه ابن عمي، وسعيدا أنني قد كسبتُ صديقا جديدا. تحدثنا في كل شيء وعن كل شيء.. عن كل تلك الأسرار التي يتبادلها عادة الأصدقاء.. سرح بنا الخيالُ في أحلام باتت تسكننا، وحلَّقنا نستدعي بالكاد أحداثا قديمة بحلب،

بعضُها من وحي الذكرى، والكثير منها من فرط سماع تفاصيلِها من الكبار.. البحرُ والموتُ والقذائفُ.. وليالي البردِ والجوعِ والخوفِ.. كنتُ مضطرا بداية أن أترجم ما يقال من التركية إلى العربية، ومن العربية إلى التركية لأجل لؤي وإيفان، لنتفقَ بعدها على أن نتحدث بالإنجليزية التي يحسنها الجميع.

عميقا كان سردُ جاسر رغم كل اقتضابه، عذبا كما عادتِه في كل حديث.. شجنٌ بنكهة الأملِ والحياةِ والجسارةِ[٣٦]. حكى لنا عن رحلةِ النزوح، وعن البحرِ، وعن معركةِ الموت والحياة.. رأيتُ بأم عينيَّ زهرةً تنبُت في أحداقه وهو يُحدثنا عن الربيعِ الذي صار منذ ذلك الحين يولد من صدره.

تكررتْ لقاءاتنا مع المجموعة طوال الشهرين فترة إقامة عمي معنا، وصار لؤي عنصرا رئيسيا فيها لا يُستغنى عنه.

كنا بداية الدخول المدرسي حينما أخبرنا عمي بأن انتقالهم إلى شقتهم الجديدة سيكون خلال الأيام القليلةِ المقبلةِ. كنتُ أعلم أن هذا سيحصلُ، وبأنَّ انتقالَهم إلى شقتِهم لن يمنعنا التواصلَ، وبأن صداقتَنا أقوى من كل رحيل، لكن الحزن والشجن رافقاني طيلةَ الأيام الأولى للفراق. كنتُ أفتقدُ وجودَه. أفتقدُ نقاشاتنا، وعراكاتِنا، ومزاحنا، وتقلُّباتنا، وخرجاتنا.

انشغلتُ بالدراسة، وانسربَ حزني داخلي وتكوَّم في سرداب مع كل تلك الأحزانِ التي صرتُ أتعزى عنها بفلسفتي الجديدة "لا شيء يستحق".

(٣٦) الجرأة والإقدام والشجاعة.

لؤي خطيب

"علاقة مسمومة"

تَطُول غربتُك ووحدتُك، ويشِحُّ[٣٧] الطريق من عارف بأبجديات[٣٨] الروح المُصْمَتَة التي أخرسها الموتُ، والدماءُ، وإدمانُ الرحيل، المستوحشةُ من بقايا الفرحِ المتآكل.. حتى إذا ما هتفتْ بك روحٌ صادقةٌ، وتجلَّى لك طيفُها؛ يَغْدو بالمحبَّة، ويَروح بالإيثار، لا تضنُّ[٣٩] بهدايا روحها قبل اليد، ولا تتلعْثم في السفرِ في ثنايا روحِك بحثا خلف تراسيمِ الحزنِ المحفورِ في قلبِك، والزوايا المسكونةِ بصمتِك، والظُّنون المجدبة المستقحلة، والزفرات المكتومة خلف جدار الصمت، وأحلامِك المنسية، وأمنياتك الصغيرة المبتورة، فتعزفُ في روحِك أنشودةَ الحبِّ والصدقِ والوفاءِ، لسانُ حالِها: "عرفتُك، لأنني أعرفُ نفسي، ولن أُحْوِجَكَ إلى كلام.

فتشدو، مِلْءَ الفرحِ المتكوِّم دمعا فصيحا في الجفون:

هو ذا! هو ذا صديقي!

هكذا باختصار كانت صداقتي بابن عمّي تميمٍ رغم كل الفوارقِ التي كانت بيننا.

كان صاخبا؛ وفي أعماقِه صمتُ القبور، متمردا رغم كلّ البرود الذي يسكُنه، أمَّا أنا؛ فخلف الصمتِ والعزلةِ؛ ثورةٌ معتملةٌ في صدري، وضجيجٌ وفوضى تأبى[٤٠] عليَّ السكون. شاركتُه كلَّ شيء؛ غرفتَه وأصدقاءَه وحبَّ والديه، وأَقْبَرْتُ بِصُحْبَتِهِ إلى حينٍ؛ الملَلَ الذي كان يتسرَّب إلى حياتي، فيُحيلها قبْوا لمومياء فرعونية.

---

(٣٧) يبخل.

(٣٨) مُفتتح، أصل.

(٣٩) تبخل.

(٤٠) ترفض.

لم تتحوَّل أبدا عراكاتنا ونقاشاتُنا، رغم حِدَّتِها أحيانا، إلى قطيعة. كان كلَّما احتدَّ الكلامُ بيننا صَمَتَ، أو غيَّرَ الموضوعَ بحنكةٍ فائقةٍ، أو اسْتَدْرَجَنِي كي أسخر من فكرة الاحتدام في ذاته. علَّمني كيف أُحوِّل الحنقَ إلى موضوع للسخرية، وكيف أُطفئ الغضبَ الملتهبَ برشَّة لا مبالاة. عدا أن الرَّشَّةَ صارت بحرا، فأغرقني في لا مبالاة استوى فيها لديَّ الخطأُ والصوابُ.

لم يكن انتقالُنا إلى شُقَّتِنا والْتِحَاقِي بالثانوية بتلك السهولة التي كنتُ أتصوَّرُها، ولم أتخيَّلْ لِوَهْلَةٍ أنني سأكون عاجزا فيها عن خلْق صداقاتٍ جديدةٍ، وأنا المعتاد على أن أنْسجم بسرعة مع الجميع، ولم يَدُرْ بخلدي لِلَحْظَةٍ أن اللغةَ ستكون أكبرَ عائق أمامي. ظننت، كما خَبَرْتُ ذلك مع أصدقاء تميم، أنه يكفي أن تكون مُتقنا للُّغة الإنجليزية كي تستطيعَ التواصلَ بسهولة، لكنَّ الحاصلَ أن الكثيرين لا يُتقنونها، أو يفضلون الحديثَ بِلُغَتِهُم الأم. بحثتُ في كل الوجوهِ عن إيفان، وعن باريش، وعن باقي أصدقاء تميم الذين صاروا أصدقائي، وبين كل الزملاء في الفصلِ وفي المدرسةِ وفي الحيّ، لكنَّ أحدا منهم لم يكن يشبههم، أو هكذا خَيَّلَتْ لي حياتي الجديدةُ في مَبْعَدٍ عن أصدقائي.

أيامي الأولى بالمدرسة كانت مرعبةً. لغةُ دروس لا أفهمها، وتنمُّر وسخرية ومضايقات، لا لشيء إلا لأنني "يابانجي" موصوم بالعروبة، وبجواز سفر أزرق دكَّنته خطيئةُ جِنسيتي السورية. لم تدم معاناتي طويلا؛ فقد ارتأى والدي أن يحوّلني إلى مدرسةٍ خصوصيَّة تعتمدُ الإنجليزية.

صباحٌ ليس كما كل صبح؛ ذاك الذي تَتَنَسَّمُ فيه عبقَ التحرر من عِبْءٍ يجثُم على الصدر، وتفتح فيه ذراعيك لمعانقةِ حياةٍ جديدة بِتحديات جديدة، وبسمة تصاحب كل الخطوات.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحا حينما حان دوري لاجتياز امتحانِ القبول. فترةُ الانتظارِ كانت طويلةً، فقد كان أمامي حَشْدٌ من الطُّلاب من مختلف الجنسيات أتوا لنفس الغرض، فكانت مناسبةً لحوارات تعرفت من خلالها على مهدي وأيهم.

تمَّ قبولي بامتياز، والتحقتُ بعد يومين بالفصل. يوم يومان، لأجد نفسي محفوفا بالكثير ممن جمعني بهم الاختبار.

كنت أجهز نفسي لبداية الدرس حينما انضمَّ للجلوس بالقرب مني "ألتان". ثم ككل تلك الصداقات التي تولد رغم التباينات[٤١]؛ ولدت صداقة غريبة بيني وبينه. لم يكن يُشبهني في شيء، ولربما اختلافُه ما أثار فضولي، وجعلني أقرِّر أن أستكشفَ عالمَه المليء بالألغاز. لم يجد مقاومةً مني وهو يسحبني بخيوطه، وكلما اقتربت؛ نما فضولي، وتشوَّقت أكثر لمزيد اقتراب. كان ابنا وحيدا لرجل أعمال تركي وأم صحفية إيطالية. يعيش ببيت العائلة مع جده بسبب سفر والديه على الدوام. كان يوسفيَّ الجمال، إبليسيَّ الأفعال، ثَرِيًّا حدَّ البَذْخِ، مُدَلَّلًا حدَّ الفساد، ساحرا حدَّ استعماري فما عاد مني ما أعود به إليَّ. في صحبته؛ تعرفت على الوجه الآخر لإسطنبول، وتعلمت أدبيات النَّزَق، وفنِّ اختراع الكذب، ومهارات التَّخفِّي والتَّلَبُّسِ بالألغاز، وتفوَّقتُ على نفسي في خَرْقِ كلِّ الأنظمة، وتجاوزِ كلِّ الخطوط الحمراء التي اعتدتُ عليها ببيتنا. صرتُ أرى العالمَ بعينيه.

كنت مثل واردِ بحْرٍ أُجَاجٍ؛ كلما عَبَبْتُ منه؛ زادني عطشا، وكلما عطشتُ؛ تَوَغَّلْتُ في الاستكشاف.

---

(٤١) الاختلافات.

- مرحبا سيد خطيب.

- مرحبا سيدتي.

- معك المديرةُ التربوية لمدرسة ابنك لؤي. نريدك مستعجلا عندنا هنا بخصوص مخالفة ابنك للقانون الداخلي للمؤسسة.

ألغى كلَّ مواعيدِ مرضاه، ثم هبَّ مسرعا يلبِّي النداء.

- أهلا بك سيد خطيب، معذرة على هذا الإزعاج، لم نستطع التواصلَ معك عن طريق الهاتف أو عن طريق بريدك الإلكتروني كما العادة، فالأمر في غايةِ الخطورة.

اتسعت حدقتا والدي، وتلعثم يسألهم:

- لؤي.. بخير؟

كنتُ ماثِلا أمامه، في كاملِ قِوايَ الجسدية، لكنَّه كان يَوَدُّ أن يتأكدَ منهم.

- بخير، بخير سيد خطيب، لكن الواقعَ أننا باغتناه يُدخِّن داخل حرمِ المدرسة مخالفا بذلك القانون، ولم يكتف بفعله، بل دخل في شجار مع الناظر، وأساء إليه بكلمات نابية، وحاول التهجم عليه بالضرب.

كانت هذه أولُ مرة تتواصل فيها المدرسةُ مع والدي بشأنِ سلوكي مذ فتحتُ عيني على الدراسة، وأولُ مرة أراه فيها خائرا، مُتلعثما، مُنكسرا. يُناوب بصرَه بين المُشرفة وبين وجهي يتفحَّصه، يستفسر عن صدق ما يُخبرونه به.

- لعله حصل خلط سيدتي. ابني لؤي؟ لؤي خطيب؟

- هو ذاته سيدي. بدلالة أنه ماثل أمامك.

كان والدي ينظر إليها ذاهلا، يتابع حديثها مبهوتا.

ارتبكَتْ قليلا، ثم مدَّت يدَها إلى علبةٍ أمامها. أخرجت منها شريط أقراص لم تتبق به سوى ثلاث حبَّات. تابع والدي حركاتها في فضول ممزوج بهلع..

-وجدنا هذه الأقراص أيضا بحوزته.

لم يدمْ صمتُه طويلا. باغتَتْه مسترسلةً تتلو عليه الإجراءات المعمولِ بها في مثل هاته الحالة. تعطَّلت أذناه فجأة عن السمع. لم يعد يُدرك ما يدور حوله، ثم ما لَبِثَ أن نبَّهه صوتُها الحازم يأمره أن يوقِّع على محضر الإنذار، ومحاضر العقوبات. سلَّمَتْهُ المشرفةُ نُسخا منها، ثم خرج مُهرولا يتعثَّر في ظله.

كان صامتا طيلةَ طريقِ عودتِنا إلى المنزل. تَكَالَب عليه الخرسُ والصَّمم فلم يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، ولم يلتفت إليّ. نَمَا فجأة جدارٌ بيننا. كان غارقا في تفكيرِه، يحاول أن يبْتلعَ الخبرَ. يُتمتم تارةً ويُحَوْقِلُ تارات.. قسماتُ وجهِه المرتبكةُ تُنْبِئُ عن معركة يخوضها في خَرَسٍ.

كنت صامتا أيضا، أستنجد به منّي في صمت، ومن تلك الأفكار التي كانت تحاول أن تقنعني ببراءتي، وتختلق لي ألف كذبة وألف مبرر كي أعفيَ نفسي من وخزةِ الضمير، لكنَّه يرفض أن يستجيب. لم يكن الأمر هيّنا عليه.

سَرَحْتُ أستعيد الأحداث أمام عينيَّ كالشريط الأحمر المستعجل للأخبار. لؤي خطيب؟ العاقلُ الرَّصين الذي كان يعطى به المثل في الأخلاق والعمل والتعاملات؟ مُدان بجريمة؟ لو قيل لي فقط قبل شهرين أنني سأكون بطلا لها؛ لسخِرت من القائل، وَلَوَصَمْتُه بِالْعَتَهِ والجُنون.

لم يكنْ والدي يعرفُ من الحياة سوى العملِ والعيادةِ. كان ساعةً تمشي على رجلين، ودستورَ نظامٍ مُتَلَبِّسًا بِجسد رجل، وكان على البيتِ كلِّهِ أن يخضع لتلك القوانينِ التي سَنَّها، وليس من حقِّ أحدٍ منَّا شَجْبًا[٤٢] ولا ثورةً ولا انقلابًا. اعتدنا على غيابه؛ فخرس فجأة إحساسُنا بافتقاده. مؤتمر هنا، ولقاء هناك. دوام ليليٌّ، وحَمَلَاتٌ تَطَوُّعِية قد تدوم شهورا. لم يَأْبَهْ يوما لِنَزِيفِ أرواحِنا من السآمة والضجر، ومن غيابه حاضرا وخارجَ جُدران البيت، ولم تكنِ الأعيادُ والمناسبات لِتَتَجَاسَرَ[٤٣] على كسرِ ما دَأَبَ[٤٤] عليه. لا أصدقاءَ، لا خروجَ، لا تجاربَ جديدة يَكْسِرُ بها عنَّا وعنه مَلَلًا ضاقتْ به أرواحنا؛ فَبَاتَتْ تبحث عن الخلاصِ خارجَ تلك المساحةِ المُسَيَّجَة بالنظامِ والغيابِ والملل.

صوتُ ارتطامِ أمنياتِ والدي انتشلتْني من فيضِ تحليلاتٍ ليست تفعل سوى التحايل في محاولة للعثور على مُبرِّر يشفعُ لي عنده. توقفتِ السيارةُ فجأةً قُبيل وصولِنا إلى المجمع السكني حيث نقطن. استجمع والدي أنفاسَه، ثمَّ حدَّق في وجهي.. بريقُ عينيه انْطفأ فجأةً..

وَدِدْتُ لو صرخ.. لو شتمني أو حتى لو ضربني، لكنّه لم يفعل..

- ما الذي قصَّرتُ معك فيه؟ أخبرني، أين تقصيرُنا معك؟ تدرس بأفضل المدارس، وتلبس أفضل الملابس، ولم نألُ جهدا، أنا ووالدتك، في أن نُيَسِّرَ لك كلَّ الظروف كي تتأقلمَ مع وضعِنا الجديدِ فلا تشعر بحاجةٍ أو نقص. هذا جزاؤنا؟

---

(٤٢) استنكارا وانتقادا.

(٤٣) لتتجرَّأ.

(٤٤) اعتاد.

كان يَئِنُّ..

وضع جبينَه على المِقْوَد.. صمتَ، وصمتَ كلُّ شيء حولي.. سمعتُ نشيجَه..

مرت تلك اللحظات كأثقلِ ما يمرُّ من لحظات، وأنا ذاهل غير قادر على تخمين ما من الممكن أن تنتهيَ إليه الأمور.

رفع رأسَه أخيرا، وبصوتٍ مكتومٍ مُتَحَشْرِج تخنُقه العَبَرات[٤٥] توجَّه إليّ وهو يتحاشى النظرَ في عينيَّ:

- انظر يا لؤي، ما فعلتَه بي يستحيل أن أنساه لك يوما.. يستحيل أن أنسى لك أنك وضعت رأسي في التراب.. حطَّمتَ كل آمالي فيك، وجعلْتَني أضحوكةً أمام العالم، وأنا الذي كنت أظن أنني أحسنتُ تربيتَك. رحلةُ العلاج للتشافي سنبدؤها بمجرد حصولي على موعد مع أحد الأصدقاء. لا مدرسة منذ اليوم، أصلا أنت مفصول منها لمدة أسبوع. لا أصدقاء، لا هاتف، لا خروج. والدتك لا يُفترض أن تعلمَ بهذا الخبر، لستُ مستعدا أن أترمَّل وأن أُيَتِّمَ إخوتَك بسبب نَزَقِكَ وتَهَوُّرِكِ وكفرانك نعمةً لم تُقَدِّرْهَا. خسارةٌ فيك والدان مثلنا..

سَحَبَ منّي هاتفي، وانطلق بالسيارة كَسَهْمٍ. لم أَرَهُ في حياتي يقود بِجنون كما فعل. صعدتُ إلى البيت؛ فلحق بي بسرعة. وقبل أن تنبِس والدتي ببنت شفة تسأل عن سبب عودتي المفاجئة من المدرسة قبل موعد الخروج؛ كان يُطمئنها:

- بداية نزلة برد في الغالب.. أو لعلَّه أكل شيئا بالمدرسة سبَّب له في

(٤٥) الدموع.

مغص. ليس هناك ما يستدعي القلق. سيرتاح ثم بعدها نرى إن كان سيحتاج إلى دواء."

لم أُطل المكوثَ معهما. هرعتُ إلى غرفتي أختبئ بين الوسادات. سمعتُ باب البيت يفتح ثم يغلق.

عند عودةِ والدي مساء؛ كان أول شيء فعله أن دلف إلى غرفتي.

- أخذتُ موعدا مع الطبيب، غدا صباحا سنخرج كما العادة وكأنَّك ذاهب إلى المدرسة.

همّ خارجا من الغرفة، ثم أردف:

- صديقُك مهديٌّ اتصل بك أكثر من مرة. وَدِدْتُ أن أعلم إن كان أيضا مشاركا لك في الجريمة، لكنني لم أَرُدَّ.

❖❖❖

مهدي

"انتقام"

هل كنتُ أحلم، أم أن أحدا عبثَ بفُصوص ذاكرتي حينما رأيتُني أسبح في خواء أبيضَ كما الغيم المنبئ بعاصفة ثلجية، ونور يلمع ويختفي كما نجم أعياه الوقوف شامخا في الفضاء، فصار يُناوب قدميه يُريحهما من التعب؟ مناورات مع عيني كي تُفتح، تنتهي بانتصار الماء الذي أغرقني فجأة من رأسي إلى أُخمص قدمي؛ في جعلهما يحسمان القرار، لأفتحهما على جُثَّة لرجل يحمل جَردل ماء؛ يبدو أنه أنهى للتو مهمتَه في حسم القرار لصالحي كي أنتصرَ على عناد عيني المغمضتين. لا أعلم كم من الوقت ظللت ممددا أحاول أن أفهم. أطالع المكان في دهشةِ عائدٍ للتو من رحلة موت. موقعي لا يمنحني القدر ةَ على استشراف كل التفاصيل، عدا تفاصيل المخلوق الواقف أمامي يُزمجر بكلام لم تستطع أذناي الفاترتان بداية استيعابه، لأفهم لحظات بعدها أنه كان يُهدِّدني ويأمرني بأن أختفيَ من المكان.

تتسارع نبضاتُ قلبي، يختلط العرقُ بالماء الذي بلَّل جسدي منذ لحظات. أصارع صراخي المتردد صدى في سراديب صوتي الأبكم. صوت ارتطام باب الشباك بالحائط يُنقذني من كابوسي؛ فأستيقظ مرعوبا ألهث.

صرت أخشى النوم من مدة. نفس الحلم، نفس التفاصيل، نفس النهاية. أنظر حولي في فزع إن كان أحد بالقرب يتلصَّص عليَّ، ثم ما ألبث أن أتذكر ألا أحد لديه من الوقت ما يُضيعه في الانشغال بي وأنا مستيقظ فضلا عن التلصص عليّ وأنا في حالة نوم. فركت عينيَّ، وجفَّفت العرقَ المتصبِّبَ من جبيني بحافة الملاءة. الساعة تشير إلى السادسة وسبع دقائق مساء. انتفضتُ قائما بسرعة؛ لديَّ الكثيرُ مما ينتظرني القيام به قبل موعد النوم. هاتفت لؤيا أكثر من خمس مرات،

لكنه لم يَرُد. كان هاتفه يرِن بداية، ثم ما لبث أن صمت. قررت إثرها أن أنتظر الصبح كي أستفسر منه بالمدرسة عن سبب رفضه الحديثَ إليَّ.

لم أكن قد علمت بما حصل معه بالمدرسة اليوم السابق، إذ كنت متغيبا بسبب وعكة صحية جديدة. كان كرسيُّه فارغا. سألت أحدَ الزملاء فَوَشْوَشَ لي أنه مفصول. فهمت إثرها لم كل تلك الخطب والتهديدات التي شنَّفت بها الإدارة مسامعَنا مذ دخولنا اليوم إلى الفصل. لم أعلم تفاصيلَ ما حصل إلا بمحطة الحافلة بعد انتهاء الدروس.

- مهدي، مهدي.. هل سمعت ما حصل للؤي؟

استدرت على صوت أيهم؛ صديقي الليبي.

- سمعت أنه معاقب، لكنني لا أعلم التفاصيل. كنت متغيبا أمس.

- استدعتِ الإدارةُ والدَه أمس. وجدوه متلبِّسا يُدخن بساحة المدرسة، ولما وَبَّخُوه؛ حاول ضربَ الناظر.

نظرت إليه مشدوها، فاسترسل:

- فُصل من المدرسة لمدة أسبوع.

أعلم جيدا ماذا يعني ذلك. أعلم جيدا تلك المرحلة التي وصل إليها لؤي. لا أستغرب أن يثور، وأن يتمرد فيقترف الحماقات. نفس الطريق سرقني سنةً كاملةً قبل أن أستفيق. حاولتُ بكل ما أوتيت إبعاده عن ألتان، لكنه كان مصرا على أن يخوض التجربة. حذَّرته ونصحتُه وقصصتُ عليه تجربتي المريرة، لكنه رفض الابتعاد. كان يظن أنني أغار من صداقتهما، ويُطمئنني أنه يحبِّني بالقدر الذي يحب به ألتان.

لم أكن أفضل حالا منه حينما قدمت إلى إسطنبول، الفرق الوحيد بيننا أنه لاجئ اضطرته الحروب إلى ذلك، أما أنا؛ فكنت ضحية رغبة محمومة لوالدِي في أن يحقِّق ذاته، وأن يبحث عن النجاح في عمله، ولم يفطن إلى أنه بذلك يحقق نفسه على حساب تحطيمي. رفضتْ والدتي بدايةً الالتحاق به حرصا علينا، لكنها أمام كمِّ المسؤوليات التي أصبحت ملقاة على عاتقها إلى جانب عملها؛ قررتْ أن تستقيل من وظيفتها، وأن تلتحق بوالدِي. رفضتُ أيضا، دافعتُ عن حقي في البقاء بمسقط رأسي، قرب الأهل والأحباب والأصدقاء.. ثُرْتُ، وتمرَّدتُ، وخُضْتُ كلَّ المعارك كي لا أُضطر إلى فراق أصدقائي وعالمي الذي كنتُ أصنعه ويصنعني؛ لكنني استسلمتُ أمام إصرار والدي، وقرار والدتي اللحاق به. كان مُبَرِّرُهما أن كلَّ ما يفعلانه كان لأجلنا. لم يعلما أنهما يُخرجان سمكةً من مائها، فأنى لها ألا تختنق؟

اصطادني ألتان كما كل فرائسه بحِنكة فائقة. خطوة، خطوتان، لأجد نفسي على مشارفِ الإدمان لولا أنني استيقظت. لم يكن والدي متفرغا كي يتابع أحوالي. زج بي في مدرسة خصوصية باعتبارها من أرقى المدارس هنا، فكان مُضطرا إلى أن ينحت الصخر كي يأتي على المصاريف المتغوِّلة في هذه المدينة الوحش. كان كثيرَ السفر، كثيرَ السهر، لا أراه بالبيتِ إلا عاكفا على حاسوبه، أو في مكالمات لا تنتهي؛ تتطاير منها الأرقام والعملات كما تتطاير أوراق الخريف ساعة زوبعة. كان كل الحديث بيننا؛ عن تحصيلي الدراسي، فلا يُفْلِتُ مناسبة إلا ويذكرني فيها بالمبلغ الهائل الذي يصرفه مقابل أن أكون مع علِّية القوم وأثرياء المدينة، ولا يألو جُهدا في التعبير عن تذمره وتسخُّطه وتعبه لأجلنا، يحذرني بذلك

من الإخفاق، ومن أن أقترف أدنى خطأ. حاولت التقرب منه مرارا.. حاولت الحصولَ على حصة من روزنامة والدتي الممتلئة بحياتها الجديدة، المكتظة بالتسوق والمولات والصديقات ونوادي الرياضة والتجمعات الخيرية التي تتباهى النساء في عمومهن بالانضمام إليها ليُثْبِتْنَ لأنفسهن ولغيرهن أنهن يُحْسِنَّ التوازنَ، وليُشبعن رغبتهن المحمومة في إظهار أنهن يمتلكن ما يفيض على حاجتهن يضحين به لأجل المنكوبين..

حاولت أن أُشعرهما بما أعانيه من وحدة وغربة وألم، لكنهما تركاني فريسة لألتان.. لحضن تلقّفَني حينما تنكَّرت لي الأحضان، فصار جزءا لا يتجزأ من تلك الأحداث التي كانت تصنع ذكرياتي البئيسة. ولأنه كان بارعا في أن يُدخلني عالمَه؛ كان يَتَفَنَّنُ في ملء فراغ روحي بكل ما من شأنه أن يجعلني مَدينا، مُمتنا له، فريسةً في شباكه لا تمتلك جرأة الفرار ولا شجاعة الرفض.

تزامن ذلك مع نوبات غيبوبة كانت تهجُم عليّ من وقت لآخر.

كنت أصاب بهبوطٍ حاد بالبيت، يفسره والدي بأنها وسيلتي كي أتدلل أو أثير انتباههما وأسترعي اهتمامهما، وتفسره والدتي بأنها طريقتي في التعبير عن تمردي.. لا أحد منهما صدق أنني كنت فعلا أتألم، وبأنه لم يكن مجرد تمثيل، إلى أن حصلت لي النوبة بالفصل، أشرس من كل ما مضى من نوبات. لم تنتظر الإدارة حضور والدي؛ فقد نقلتني إلى المستشفى بسيارة إسعاف، لأبدأ رحلتي في العلاج من داء السكري.

أُرغمت على اتباع حِمية قاسية.. وعلى الإحجام عن كل تلك الأكلات والمشروبات المحبَّبة لدى كلِّ أقراني، وأن أكون تحت رحمة إبرة؛ إن

تخلَّفْتُ عن أخذها؛ تعقَّدت أموري أكثر. لكنني كنت أرفض كل ذاك، بل ما زادت رغبتي في العصائر والرقائق والحلويات إلا بعد أن مُنعت عني.

صرت أكثر عصبية، أكثر غضبا.. أكثر ثورة وتمردا.. أعلن جسدي ثورته عليّ، عقابا لي على القبول بالعيش ببلد لا أتنسَّم فيه عبق تربة سقتها طموحاتي وأحلامي، وبهجة الحياة التي غادرتني مذ أصبحت مهاجرا.

❖❖❖

يومها، كانت السماء تُزَمْجر معلنةً عن لقاء وشيك بين قَطرها وأديم البوسفور، وآخر أسراب النوارس تحوم بالقرب علها تحظى بوجبة دسمة قبل اضطرارها إلى أن تغادر الشاطئ. كنت أراقبها في صمتِ منْ أُرغم على السكون، وعلى أن يحوم مثلها في الفضاء، عدا أن فضاءها حقيقي، وفضائي كانت تصنعه الجرعات المتواترة من سيجارة مُلئت بعناية بما يجعلني أحلِّق مثلها في امتدادٍ رحبٍ يفتح ذراعيه لكل من أراد أن يطير، ولربما خِلْتُني نورسا.. سحائب الدخان تتسارع كي تلاحق الغيوم المتكوِّمة تمارس طقوس المخاض، لكنها تصطدم بزجاج العوامة التي كانت تجمعني وألتان. كؤوس شاي، وأرجيلة، وأعقاب سجائر، وقصاصات متناثرة هنا وهناك، وألحان تركية تراقص عجاج الدخان. وكنت هنا، أو بالأحرى هناك.. ابتسامة بليدة لا تفارقني.. أغرق في ضحك هستيري لِأَتْفَه الأسباب.. لرؤية ذبابة تحلق وتصطدم في كل مرة بالزجاج ثم تعيد الكرة، لفنجان الشاي الذي اندلق على يدي المرتعشة وثيابي مرتين، لمرأى ألتان وهو يسحب الدخان بقوة من سيجارته اللعينة، ثم ما ألبثُ أن أنخرط في بكاء عقيم كطفل فَقَدَ والدتَه في الزحام..

كنت فعلا قد فقدت والديَّ في زحامٍ لم أحسن التوغل فيه، ولم أجد يدا تنتشلني منه وتضع كفِّي بكفِّ أمي.. بكف الأمان..

استفقت على جردل ماء يُبلِّلني به أحد المستخدمين بالعوامة. لا أعلم كم من الوقت بقيت فاقدا للوعي، وحينما استرجعتُ ذاكرتي؛ لم يكن ألتان هنا، غادر المكانَ فور سقوطي مغمى عليَّ. علمتُ بعدها أن مهمتَه معي قد انتهت، وأنه قد وصل إلى مراده: أن يغرز فيّ سمه كأفعى، ثم يتفرج عليّ من بعيد، وينتشي وأنا أترنَّح وأتوسَّل إليه كي أحصل على جرعتي. كانت تلك لعبتَه.

نجوتُ بأعجوبة؛ من تلك النوبة، ومن الإدمان، ومن اطِّلاع والديّ على ما حصل. كانت تلك الواقعة وموقف ألتان سببا في أن أعيد كلِّ حساباتي. قررتُ قرارا جازما أن أبتعدَ عن كل طريق يجمعني به، لكن تلك الثورة التي كانت تُؤَجِّجُني مازالت تستيقظ في أحشائي من وقت لآخر.. فأحنق على والدي، وألعن الأصدقاء، وألعن المدرسة، وألعن الهجرة..

ينتشلني صوت أيهم:

- حاولت الاتصال به أمس مرارا. رنَّ هاتفه بداية، لكنه لم يرد، ثم لما عاودت الاتصال؛ وجدت هاتفه غير مشغل.

- أنا أيضا فعلت. تركت له رسالة صوتية. انتظرت رده، لكنه لم يفعل.

- يصعب عليّ ما آلت إليه أموره يا مهدي.

- حذرته مرارا.. قد رأى بأم عينيه ما حصل لي، لكنه كان يريد أن يعيش التجربة.

- لم يكن يعلم أن بين التجربة والإدمان شعرة.

- لا أحد يخمن ذلك قبلا يا أيهم. الكل يظن أن الخطر لا يهدِّد إلا الآخرين، وبأنه في كل الأحوال سينجو.

- ربما فهمُنا القاصر لمعاني الحرية وحدودها يلعب أيضا دورا في ذلك.

- الفيلسوفُ أَيْهَم حضره جِنِّيُّ الإلهام. عن أيةِ حرية تتحدث؟ دعنا لا نُشَعِّب الموضوع يا فتى، ولا نعطِه أكثر من حجمه.

- وما حجمه يا مهدي؟ أليس الأمر يستدعي منا وقفة؟

- لا وقفة ولا جلسة، دعنا الآن نفكر عمليا كيف نستطيعُ مساعدتَه.

- أنت تتهرَّب من مواجهةِ الحقيقة.. كيف سنساعده ونحن أصلا لا نفهم بالضبط سبب ما وقع؟

- واضح جدا يا أيْهم؛ لا تعقِّد الأمور. الصحبةُ السيئِّة، كلُّنا يعلم ذلك..

- ليس فقط ذاك يا مهدي. ليس لِأَلْتَانَ عصا سحرية، ولا قدرات خارقة كي يفعل. لؤي كان لديه قابلية لأن يسقط في شباكه.

لم أسمع باقي كلامه.

هل كانت فعلا لديَّ قابلية للسقوط في شباكه؟ هل كان لألتان كلُّ هاته السطوة عليَّ، أم أنني من ساعدته على ذلك؟ انتفضتُ. أوجعني كلامه:

- لنفترض جدلا أن الأمر كما زعمتَ؛ إن كانت لي قابلية للانصياع، فأنا على الأقل كانت لدي مبرراتي، فما مبررات لؤي؟

- وما مبرراتك يا مهدي؟ ما الذي من الممكن أن يبرّر لك أن تسقط سقطتَك تلك؟ بل وما الذي يبرّر لك أن تتمرد على اتّباع حِمْيَتِكَ وأنت تعلم أنك مريض؟ من تُعاند على الحقيقة؟

- أنت لا تفهم يا أيْهم. تعيش بعالم مُثُلِك، وتخرج علينا في كل مرة بعباءة الواعظ وجُبَّة الفيلسوف. أنت لا تعلم معنى أن تُنْتَشَلَ من غرفتِك وأصحابِك، وأن تُضْطَرَّ إلى أن تتركَ كلَّ شيء خلفَك لأجل أن تكون فصلا من فصول رواية بطولات والدك. لا رأي لك ولا اختيار، فقط تُحقِّق جزءا من رغبته المحمومة في النجاح...

-كنتَ تودُّ الانتقام إذن..

- اعْتَبِرْهُ انتقاما، اعتبره ملءَ فراغ، اعتبره خوضَ تجربةٍ.. اعتبره ما تريد، لكن في الأخير لم يكن لي من حلٍّ سوى ذاك.

- وكان حلا؟؟ مِمَّنْ كنت تنتقم؟ من والديك؟؟

- لا تَنْبُشْ كثيرا يا أيْهم.. دَعْنَا من هذا الموضوع.. لا أحبُّ أن أتذكَّرَه. دعنا في موضوعِ لؤي.

- أنت من نَبَشْتَهُ. كنتُ أحدِّثك عن لؤي؛ لكنك أسقطتَ كلامي عليك. ثم دعني أخبركَ بشيء أخير، وأعدُك ألا أعودَ إلى الموضوع مرة أخرى. لِمَ تعتبرُ ما فعله والدُك يا مهدي جريمةً في حقك؟ لِمَ تظنُّ أنَّه لا همَّ له سوى نفسِه؟ ألم يُرد بهجرته أن يُحَسِّنَ أوضاعَكم المادية، وأن يُمَكِّنَكُم من مستوى عيشٍ أفضل؟ ثم ما الجريمة في أن تكونَ له

طموحات؟ هل يُفترض أن يترك كلَّ شيء فقط لأنَّك لم تستطع الفطامَ من غرفتك وأغراضك؟؟

- قلت لك دَعْكَ في عالم مِثَالِياتك يا أيْهم. أنت لا تفهمُ شيئا.. أقول لك انتُزِعْتُ من عالمي وأنت ت...

- يا مهدي، من السهل جدا أن تعلق أخطاءك على شمَّاعة من حولك، وأن تلعب دورَ الضحية.. أنتم على الأقل خرجتم من وطنكم برغبةٍ واختيار، وَلَدَيْكُمْ إمكانيةُ العودةِ إليه في أيّ لحظة.. أنتَ على الأقل في صُحبة والديك وكلِّ أسرتِك، فماذا عن هذا الماثلِ أمامَك والذي لم يَتَبَقَّ له من العالم سوى رصيدٍ بَنْكِيٍّ يضمن له الدراسة بمدرسةٍ راقية، وأبٍ انقطع خبره بغتة فما عدتُ أعلم إن كان حيا أم أنه أيضا قد غادر..

رأيتُ الموتَ يا مهدي.. رأيتُه بعينيَّ ولمسته بيديَّ.. وشهِدت مقتلَ والدتي وأختَيَّ دون أن أستطيع مغادرةَ مخبئي كي أساعدهن.. رأيت الأشلاءَ المُمَزَّعَةَ، والرؤوسَ المقطوعةَ، والجُثَثَ المُشوَّهة تنْهشها الكلاب.. تودُّ أن تعلم كيف وصلت من مصراتة إلى هنا؟ تودُّ أن تعلمَ أنني أمضيتُ أسبوعا بين عجلات ناقلةِ بضائع؟ تحبُّ أن أخبرَك عن الرُّعب الذي عشتُه كلما وصلنا إلى نقطة تفتيش؟ لم يدر بخلدي للحظة أنني سأحوِّل مجرى الكلام إلى الحديثِ عن نفسي، لكن عبارة "مثاليات" التي تكررها دائما أمامي تَسْتَفِزُّنِي. يُفترض، حسب منطقك، وقد كان من شأني ما كان؛ أن أصيرَ الآن من أباطرة المخدرات، وصُنَّاع الجريمة.. وهل من مبرِّر أقوى مما عشتُه؟ وهل من مبرِّر أكثر من هذه الحرية التي أعيشُها؛ فلا رقيب عليّ يحاسِبني عن خطأ أو عن تمرد؟

كان بإمكاني أن أؤجل عودتي إلى البيت فأُفلت الحافلة كما أفلتُّ السابقة، وأنتظر التي بعدها لكي نواصل الحديث، لكن جرعةَ كلام أيْهم كانت مركزة..

لوّحت بيدي للسائق كي يتوقَّف. صعدت إلى الحافلة وأنا أَعِدُهُ أن نُكملَ الحديث ليلا على الهاتف؛ وفي نيّتي أن أُخلفَ الوعد.

❖❖❖

أيُهم

"اعْتَنَقْتُ حُرّيتي"

عدتُ إلى بيتي بعد أن ودَّعتُ مهديًّا وفكرةٌ واحدةٌ تَسْكُنُنِي: أن أجْرُدَ تخوُّفاتي كلها، وجَبَانَاتِي جميعها، وأن أرى ما الذي سَيَتَبَقَّى لي بعدها من الحياة.

بعد تسويات ونقاشات وحديثٍ شفيف مع نفسي لا يملكُ رفاهية التَّخَفِّي، أو أن يترك لما وراء السطور حظَّها في المعاني؛ خَلَصْتُ إلى أنَّ جزءا كبيرا من تَخَوُّفَاتِي ليس يقع سوى داخل رأسي، وأن الذي أخشاه ربما أصلا لا وجودَ له، وجزءا آخر؛ بسبب جبانتي التي أصبحتْ تُجَرِّئُ عليَّ الضعيفَ قبل القوي، وجزءا إنما هو وليد معاركَ قديمةٍ، ونزيفٍ لم يكتمل بُرْؤُهُ، وبعضِ أحلامٍ مَوْءُودَةٍ. والجزءَ الأهمَّ؛ أنني ربما من كثرة إدمانِ الخوف، اسْتَمْرَأْتُ[٤٦] الخُنوعَ، ومن كثرةِ إدمانِ الأوجاعِ؛ صرتُ أخشى الفرحَ، وأخشى أن تُصيبني نفحتُه؛ فأحتمي بزرع التخوفات ألغاما تُفَرْمِلُ[٤٧] قفزي، وتفرضُ عليَّ أن أسلُك الطريق بحذر.

من ذا الذي يزعم أننا لا نتغير؟ وأن الأحداثَ وتراكم الخيبات والأوجاع لا دخل لها فيما نصير إليه؟

من ذا الذي يجزِم أننا لا نتشوَّه، وأنَّ الخوف لا يقوى على اقتحام الفرسان المقاتلين مُدمني المعارك؟

من ذا الذي يدرك أنّنا من نصنع تخوفاتنا، ومن نضعُ حدودا لإمكانياتنا، وننتشي بالاختباءِ خلف الضعف، وبزرع الهواجسِ ونثر الرِّيبة[٤٨] والشكوك؟

---

(٤٦) استطبْتُ، وجدتُه مقبولا.

(٤٧) تَكْبَحُ.

(٤٨) الظن والشك.

كانت عقاربُ الساعة تنهب المساء نهبا، والتَّسويات[٤٩] تأبى إلا أن تُغرقني في سيلِها. تذكرتُ مهديًّا فجأة. هاتفتُه كي نكمل حديثَنا الذي اتفقنا على إتمامه، لكنه لم يَرُد. عاودتُ الاتصالَ فلم يرد. رأيتُه متصلا على مواقع التواصل.. انتظرته طويلا، فلما لم يتصل؛ فهمت أنه لا يريد الحديث مرة أخرى في الموضوع. احترمتُ اختيارَه.

كنت في حاجة إلى الحديث.. إلى البوح.. إلى من يشاركني لحظات التجلِّي[٥٠] تلك. خطر ببالي لؤي. قد أنشغلُ بهمِّه عن همِّي إن نجحتُ في التواصل معه. قمتُ بمحاولة أخيرة، لكن الهاتف كان غير مشغل.

لم أستطع الانشغالَ في شيء بدايةً، لم تكنِ التَّسوياتُ بتلك السهولة التي تجعلني أخلص حثيثا إلى قرار. لم تكن جرعةُ كلامي عشيةً ثقيلة على مهدي وحده، أنا أيضا نَبَشْتُ ذكرياتٍ طالما جاهدتُ كي أجعلَ شبحَها لا ينتصرُ عليّ. لم أسترسلْ مرة أخرى مع الذكرى، قطعتُ عليها الطريق بالاشتغال زهاء ساعتين ونيف على واجب اللغة الإنجليزية، ثم خطر لي أن أهاتف والدَ لؤي. كدت أتراجع فأقطع المكالمة، لكن ردَّه باغتني، وقبل أن أقدِّم له نفسي؛ كان يرحب بي مخاطبا إياي باسمي. علمتُ إثرَها أن رقمي كان مسجلا عنده. لم يضطرني إلى أن أتوسل إليه كي يجعلني أُحَدِّث صديقي، بل هو من عرض عليّ زيارته، وأن أبقى بالقرب منه خلال الأيام الموالية العصيبة.

- لؤي في حاجة إليك يا أيْهم. أنت بالضبط لك تأثير كبير عليه. لربما استطعتَ استغلالَ احترامه لشخصك، وثقته في قناعاتك كي تساعدَه على تجاوز الأزمة.

---

(٤٩) اتفاقات لإنهاء الخلاف وإيجاد الحل.

(٥٠) ظهور الحقيقة وانكشافها في القلب.

بدا صوت والد لؤي حزينا كسيرا، وبدوتُ من خلال حديثه كتلك القشَّة التي يتشبثُ بها الغريق.

سعدتُ جدا بهاته الثقة التي منحني إياها، وسعدتُ بثنائِه عليّ، وفرحتُ أكثر بالصورة التي نَقَلَهَا صديقي لوالديه عني. أنهينا المكالمةَ على اتفاقٍ أن أزورَ لؤي عشية اليوم الموالي بعد المدرسة.

كما العادة، لم يكنْ يومي بذلك الهدوء الذي أنْشُدُه. لا يمرُّ يوم أو يومان دون أن يفتعل "سِردار" وعصابَتَه مشكلا جديدا معي، ينتهي بحفلِ استهزاء وسخرية مني، لا لشيء إلا لأنني مجرد لاجئ، وَهُمْ أصحاب البلد..

أن تكون لاجئا؛ يعني أن تُضطر إلى أن تتبرَّأ من لغتك، وتتقنَ لغتَهم كي يقبلوا التواصل معك، وأن تنسى تقاليدَك وعاداتك وتستبدل بها ثقافةَ "وطنك" الجديد، وإلا اعتبروك غيرَ قادر على الاندماج، وأن تُضطر إلى أن تتوارى[٥١] من هويتك كي تستطيع الانخراطَ في عالمهم. أن تُرْغَمَ على أن تَفْقِدَ سكينةَ تناغمك مع ذاتك كلما اضْطُرِرْتَ إلى المخالطة.

أن تكون نازحا؛ يعني أن تمتص روحَك الغربةُ، وأن تتبعثر ذكرياتُك في الطرقات.. أن تجدَ نفسك مُخْتَرَقًا بالجموع، فتبحثَ عن ملامحك في مراياهم فلا تَرَاكَ.. أن تُمضي عمرَك تضفر جدائل المستحيل، رافضا أن تقبل بالمتاح، فارًّا منك لأجل أن تلقاك.. حتى إذا ما التقيتَ نفسك؛ عُدْتَ بكِيانٍ[٥٢] مُشَوَّهٍ، ووجودٍ مبتورٍ..

---

(٥١) تختبئ وتستتر.

(٥٢) ذات، وجود.

أن تكونَ مغتربا؛ يعني أن تُلجئُك الأوطان التي لفظتك[٥٣] إلى أن تظلَّ مقيما بين سجونِها وإن تنازلتَ عن هويتك، وسلَّمت في وطنيتك وهاجرت..

حصةُ الأدب الإنجليزي من أحب الحصص إليَّ. بعضُ المواد نحبها؛ ليس فقط لِمَيْلٍ لنا إليها، وتفوُّقنا فيها؛ وإنما أحيانا كثيرة يكون السبب في ذلك؛ مُدَرِّسِها. الآنسة "أليف" نموذج مثاليٌّ على ذلك. ربما بسبب شخصيتها الفريدة المتميزة، الجامعةِ بين الحزم واللين والتفهُّم، ولربما لأنها مُتَمَكِّنَة من مادَّتها، ناجحة في إدارة الحوارات، واستفزاز خيالنا وأفكارنا، ولربما لأن طبيعة حصَّتها تفسحُ لنا مساحات للتعبير عن آرائنا بحرية، وللمناقشة والإفصاح عن ذواتنا.

- من يريد أن يتقدم ليعرض لنا ما كتبه بشأن ملخص رواية "وجه آخر" التي درسناها خلال هذه الدورة؟

نظرات من سردار تُحذِّر الطلبة من أن يتقدموا، وسيلتُه المألوفةُ في التشغيب على الحصة واستفزاز المُدرِّسين. صمتٌ يعمُّ المكان، يكسِره صوتُ المدرِّسة الحازم في أنها ستُضطر إلى تعيين من يقوم بذلك إن لم يتطوَّع أحد. نفسُ الصمت. لا أحد يَجْرُؤ أن يخالف أوامر "الزعيم"، ولم أكن مستعدّا لمعركة جديدة تنتهي مرة أخرى لصالحه. امتدتْ يدُها إلى كرَّاسة تستدعي قائمة أسماء الطلبة، ثم ما لبثَتْ أن عيَّنت "ضحيَّةَ اليوم":

- أيْهم منصور الطرابلسي. تفضل يا أيْهم، اقرأ لنا مُلخصك.

بقدر ما كنت أحبُّ اسمي، وأحبُّ معانيَ الشموخ والجُرأة والنور الذي يحمله؛ كنت أكرهه لابتدائه بأول حرف أبجدي يجعلني على الدوام برأس القائمة.

---

(٥٣) أخرجتك.

تَلَعْثَمْتُ قليلا. كدتُ أخبرها -اتقاء لشر ينتظرني- أنني لم أنْجزْه، لكنَّني عدلت عن ذلك في آخر لحظة حينما تذكرتُ عنائي الليلةَ الماضيةَ، وأنا أحاولُ أن أتفنَّنَ في تلخيصِ الرواية، ثم ما لبثتُ، تحت وطأةِ نظراتها الحازمة، أن أشرتُ إلى تميمة إلكترونية أخرجتُها توًّا من علبةٍ أحتفظُ فيها بالشرائح:

- لم أكتب ملخَّصا آنستي، وإنما تشجير للعلاقات بين مختلفِ شخصيات الرواية، ثم عرجتُ على خريطة ذهنية تلخص كلَّ الأحداث، لأنُهي بحثي بتحليلٍ نقديٍّ لمفهومِ الحرية الذي أصَّلَتْ له الكاتبة منْ خلال "دويل" بطلِ الروايةِ في علاقتِه مع باقي الشخصيَّات.

- رائع. تُبهرني طريقتك في الاشتغال يا أيْهم. هذا يعني أنك ستحتاج إلى عرض عملك عبر المِسْلاط؟

- أجل.

- ممتاز. إذن تقدَّم إلى المنصة.

حَدَجَنِي[٥٤] سِرْدار مُتَوَعِّدًا لعله يُثنيني[٥٥] عن المُضي، لكنَّني قررتُ التحدي، أو لِنَقُلْ: كنتُ مُرْغَمًا على ذلك.

ارتبكتُ بدايةً، لكن سرعان ما بَرَحَنِي التوترُ أمام تشجيع المدرّسة. لم يكن توتري من العرض في حدِّ ذاته، فليستْ هذه أولُ مرة أقفُ فيها أمام زملائي أقدِّم بحثا، وإنما كنتُ وَجِلًا[٥٦] مُتَوَجِّسًا[٥٧] من ردَّة فعل "الزعيم".

---

(٥٤) رماني بنظرة حادة.

(٥٥) يصرفني ويردني.

(٥٦) خائفا مفزوعا.

(٥٧) متوقعا حدوث الشر.

تمَّ العرضُ بسلام.

كنت أَهُمُّ بجمعِ أغراضي والعودةِ إلى مقعدي حينما استأذنتْ "بهارُ بيرقدار" المُدرِّسةَ في طرح أسئلتها فتحا لباب النقاش عمَّا جاء في العرض. سَرَتْ قُشَعْرِيرَةٌ فجأة في جسدي، وقَرَصَ أحشائي الخوفُ. أخرجُ من معركةٍ لأدخلَ أخرى. كنتُ أعلم جرأةَ بَهَارٍ في النقاش، وأعلم قُوَّتَها في التحليل وفي الإفحام. وكنتُ أعلم أنني لن أخرجَ بعد تعقيباتِها كما دخلتُ.

من يرى مقعدَها نهاية الصف وحيدةً، وصمتَها المسكونَ بالكثيرِ من الألغاز، ومساحتَها الخاصةَ المسيَّجَةَ بالغُموض، ونظراتِها الحالمةَ العائمةَ؛ يظنُّ أنها من أولئك الذين ينتظرون في سَأَمٍ نهايةَ الحصَّة كي يَنْعَتِقُوا من سجنٍ فرضَه الوالدان عليهم، وفرضَه خوفُهم من الفراغ إذا ما امْتنعوا عن الدراسة، حتى إذا ما تدخَّلَت؛ أَبْهَرَتْ من حولها، وأَبْدَعَتْ في الإجابة، وأَتْعَبَتْ مَنْ بعدها مِمَّنْ يَرومون المشاركةَ والردَّ. أولُ منْ يخرجُ من الفصل بعد انتهاء كلِّ حصة، وآخرُ من يلتحق عند كل بداية. تختارُ بعنايةٍ فائقةٍ معاركَها خلال الدرس، فلا تَهْتَشُّ[٥٨] إلا للأسئلة الصعبة، وللتمارين التي تحتاج الكثيرَ من الذكاء والمهارة والحِنكة، ولا تُجيب إلا حينما يعجِزُ الجميع عن إيجاد الجواب الصائب. لا تطلبُ التَّدخل، تتركُ أن يُطلب منها ذلك. تعتدلُ في جلستها، وتُوَطِّئ لردِّها بابتسامة زُهُوّ، ثم، تحت ذهول الزملاء والمدرِّسين على حد سواء؛ تنطلقُ في كلامِها لا تلوي على شيء، تُحلل وتستنبط وتنتقد وترافع، ثم تُكمل حديثَها كما ابتدأته بابتسامةِ نصر تضع بها نقطة النهاية. يُنصت الجميع إليها في خشوع. تشرئِبُّ الرؤوس والقلوب لها؛ وتتفاداهم، ويخطبُون وُدَّها؛ وتتحاشاهم.

(٥٨) تنشط وتُقبل في فرح وسرور.

تريد أن تصنِّفها في خانة المستكبرين؛ فيأبى عليك تواضُعها أن تفعل، وتودُّ أن تحشُرَها مع المتعصِّبين المُحْتَدِّين الهجوميّين؛ فيُدافع عنها ذاك المزيجُ من قوةٍ في لينٍ، وصلابةٍ في انبساط، وجرأةٍ في أدب جمٍّ. لكنك في الأخير لا يمكن أن تصنِّفها إلا في خانةِ المحاربين المغاوير الذين يرفضون الهزيمة، ويرفضون العودة من معاركِهم بدونِ غنائم.

كنتُ أخشى أن أكونَ غنيمتها هذا اليوم.

تعتدلُ، تحمل قلم رصاص بيد وكشكولا بيد، تتنحنح، تبتسم، ثم تشقُّ المعركة في ثبات يُجْهِزُ على آخر ما تبقَّى لديَّ من توازن:

-ذكرتَ في عرضِك من بين ما ذكرت؛ أن سفرَ البطل وتنقُّله من بلد إلى بلد؛ قد منحه مزيدا من الحرية، وأقتبس عبارتك التي بَدَتْ لي نوعا ما- واعذر فهمي فقد أكون أنا من لم أفهم جيدا- فضفاضةً وتحتاج إلى تدقيق، بل متناقضةً ومثالية إلى أبعد حد. قلتَ: "... فسفره الدائم منحه "الحريةَ" في أعمق مفاهيمها وأكثرها دقة، لا تلك التي قد تُفهم على أنها كسرٌ للقوانين، وابتعادٌ عن الروتين أو تنصُّل من المسؤوليات." انتهى الاقتباس. فكيف من الممكن أن يكون السفر كما ذكرت؟ أليس السفر هو كل ما نفيتَه؛ من كسر للروتين وللقوانين وللعادات وراحة من المسؤوليات؟

ترددتُ قليلا قبل الرد. كنت أعلم جيدا الإجابة، لكنني غُصت في كلام بهار أبحث خلف سطورِه عن نواياها. ليس مثلها من يطرح مثل هذا السؤال.

لم يدم ترددي:

- كل هذا حاصل تحصيل، وهو توصيف لما من الممكن أن يرافق هذا السفر، وليس للحرية في مفهومها العميق. قصدي بشكل أوضح؛ أن

احتكاكَ البطل "دويل" خلال أسفارِه بالناس من مختلَف المشارب، وقربَه من مساحة تفكيرهم، ومن ظروفهم، وواقعهم، واختلاف ثقافاتهم، وردود أفعالهم، واختياراتهم الحياتية؛ بقدر ما علَّمه التؤدةَ[٥٩] والتروِّيَ وعدمَ الاندفاع في فهم مواقفِهم البشرية، وتقدير دوافعهم السلوكية كما في موقفه مثلا من اختيار "إيما" تغيير تخصُّص دراستها لأجل تحقيق حلم والدها، ومن انخراط "سيباستيان" في الجيش، متخليا عن مشاريعه التي عاش عمره يحلم بتحقيقها، ورغم كل ما كان ينتظره، وغيرها من المواقف التي تواترت في الرواية؛ منحه مساحةَ حرية جديدة، هي نتاج توسُّع إدراكاته، وتبصُّره بالعالم حوله، وقبلها بذاته التي ما يفتأ يبحث عنها بين كمِّ المعارك التي خاضها طيلة أحداث الرواية، والقرارات التي اتخذها، وكمِّ التناقضات التي صنعتْ شخصيتَه وشاركته عبور دربه.

- جميل. الآن وضحت الصورة. لكن دعني قبل أن أطرح عليك سؤالي كي تكتمل الصورة أكثر؛ أقف قليلا مع شخصيتين ثانويتين ذكرتَهما في معرضِ شرحك للحرية. وأقصد بذلك: "كارل" الذي ضيَّع حلمه في أن يصبح طبيبا لاعتقاده أنه لن يستطيع، وتُرجع الكاتبةُ السببَ الرئيسيَّ في ذلك؛ إلى أنَّ والدَه كان يكرر على سمعه منذ صغره أنه فاشل، فانْخَرط دون وعي في تكريس هذا الحكم. و"ديفيد" الذي لم يستطع أن يتقدم للزواج من محبوبته لأنه ظن أنها سترفضه بسبب فقره، في حين نعلم نحن، كقراء وكشاهدين في الكواليس، أنها كانت تنتظره، ومستعدةً إن طلبها للزواج أن تضحِّي لأجله. كلاهما، وأقتبس مرة أخرى من كلامك عبارة أعجبتني:" كلاهما اعتقد أنَّه لا يملك شيئا، وبالتالي لا يستحقُّ

(٥٩) التأني والتمهل والرزانة.

شيئا." فالأول لا يمتلك- في نظره- الموهبةَ والمثابرةَ والمؤهلات التي تجعل منه طبيبا، والثاني لا يمتلكُ المال. وأضيف أنه لا يمتلك الشجاعةَ أكثر من افتقاره إلى المال. فكيف تفسر ربطَك بين مآلهما المؤسف، وعجزهما عن تحقيق أحلامهما؛ بكونهما لا يدركان معنى الحرية؟

أدركتُ أنها تَحْبَكُ نسْجها. بقي أن أستكشف سرَّ هذا النسج.

- كارل وديفيد يمثلان في الرواية النموذجَ المقابلَ لشخصية "دويل". كلاهما لم يكن معنيًّا بالحياة لنفسه؛ بقدر ما كان يعمل على تكريس فكرةٍ تشبَّع بها، وبَذَلَ قُصارى جُهده كي يُثبت لنفسه أو لمن حولَه أنه فعلا كما ظنَّ أو كما ظُنَّ به. كلاهما ضيَّع نفسَه بتضييع فرصتِه في أن يحصلَ على ما يريد. كلاهما لم يؤمن بنفسه، أو بالأحرى لم يَفهمْ نفسَه ولم يعرفْها. بعبارة أوضح؛ لم يَكُنْ نَفْسَهُ. في حين أنَّ جُزءا كبيرا من حرية "دويل" - من وجهة نظري- في هذا السلام الداخلي الذي كان يكابد كي يُحصِّله أو كي يُبْقِيَ عليه حينما اقتنع أنه صادفه، وجزءا كبيرا من هذا السلام يكمُن في تحوُّله من الحياة بالأشياء ولأجلها؛ إلى تعلُّم الابتهاج بها أو من دونها، وفي انتقاله من عشق المادة كما كان حاله في الفصل الأول؛ إلى تذوُّق المعاني، والأفكار والأشياء، والحياةِ في كل ما يفعله وما يعتقده، والتعبيرِ الحر عن نفسه، وفرضِ ذاته. وهذا أيضا خوَّلَهُ له، من بين ما خوله له؛ السفرُ، وكثرةُ تنقلاته، والتغييراتُ الجَمَّةُ التي رافقته.

- إذن أنتَ تقصدُ أن هناك ترابطا بين الشخصيةِ والانسجامِ مع الذات، والحياةِ في الأشياءِ والمعاني ومعها؛ وبين الحرية؟

- بالضبط. وكي أوضح أكثر؛ فإن فهمَنا لأحكام وقوانين الحياة، ومحاولتَنا ربط العلل بالمعلولات، والأسباب بالنتائج، وسعيَنا الدائمَ للالتزام بما ترسَّخ لدينا من قناعات، وإيمانَنا الراسخَ، من غير مثاليات،

بأنَّ الخطأَ شرطٌ من شروط كوننا إنسانا، ومجاهدتَنا أنفسَنا كلَّما حِدْنا[٦٠] أو اسْتلبتْنا[٦١] الطرقاتُ على التصحيح والإصلاح، وحرصَنا على إعطاء العقل فرصتَه في التأملِ والتدبرِ، ومحاولةَ جعلِ ظاهرِنا على الدوام مُتناغما مع باطننا، مُنسجما مع مبادئِنا واختياراتِنا في تلقائية دون تكلف أو أصباغ أو تلبُّسٍ بما لم نُعْطَ؛ يمدنا بقدْر أكبرَ من الحريةِ التي هي في النهايةِ تعبيرٌ عن شخصياتِنا، وتأكيدٌ لوجودنا الذاتي.

- تمام. اكتملت الصورة الآن. دعني في نهاية مداخلتي أُعَقِّبُ في عجالة على ما تفضَّلتَ به.

- تفضلي.

- أودُّ أن أُسْقِطَ واقعيًّا ما جاء في كل ما تمَّ مناقشته، وبالتالي فتساؤلي، ولستُ أطلب ردًّا عليه، يفرضُ نفسَه. إلى أيّ مدى نمتلكُ الجرأةَ على تفعيل كلّ ما نعلمُه ونُحسنُ فهمَه واستنتاجَه وتحليلَه واقعيا؟ إلى أيّ مدى نحن قادرون على تأكيدِ وجودِنا الذَّاتي؛ ونحن ما زلنا نخشى أن نكونَ نحنُ، دون خنوعٍ ودون اضطرار إلى أن نتركَ الآخر يؤطِّرنا في حدود يصنعها لنا بنفسه، ويُلزِمُنا بها؟ إلى أي مدى سنستطيع، وأستعير عبارتك، "مجاهدةَ أنفسِنا على التصحيح والإصلاح" إن كانت هناك قطيعة بين قناعاتِنا ومبادئِنا، وبين تصرفاتِنا وردودِ أفعالنا؟

معضلةُ كلٍّ من كارل وديفيد؛ وهي نفسها معضلة الإنسان؛ أنهما بذلا قصارى جهودِهما كي يتحرَّرا من الأغلال الخارجية، لكنهما وقفا عاجزَيْنِ أمام قيودِهما الذاتيةِ الداخليةِ.

---

(٦٠) مِلْنا وابتعدنا عن الصواب.

(٦١) سيطرت علينا فصرنا خاضعين لتأثيرها.

نظرتُ في الفراغ مفزوعا من دقَّة فهمي لِبُعْدِ كلامِها. أعلم الآن بالضبط كيف تشعرُ الحاملُ حينما تتحسَّسُ أولَ نبضٍ لجنينها بأحشائِها. بقيَ أن أتعلَّم طقوسَ المخاض ومراسيمَ الولادة، وأن أحدِّدَ بنفسي متى تكونُ. فمتى ستكون؟

ضربةٌ ملءَ الكفِّ على الطاولة؛ تصحبُها نظراتُ تربُّصٍ ووعيد من سِردار فهمَها كلُّ منْ بالفصل عدا المدرّسة.

رنَّ الجرسُ لِيَكِلَني إلى مصيرٍ كنتُ أعلمه في العموم، دون قدرةٍ على تخمينِ تفاصيله. كل ما كنتُ موقنا منه؛ أن الأمرَ سينتهي مرة أخرى بقُبَّة الإدارة، وبِتَعَهُّدٍ منَّا معا، أنا وسردار، ألا يقرب أحدُنا مساحةَ الآخر، دون قدرة على اتخاذ إجراءات صارمة في حقه لعدم ثبوتِ التُّهم عليه، وبوعيدٍ جديد إلى حين حدثٍ جديد يُخَوِّلُ له فرصةَ انتقامٍ آخر.

حملت أغراضي، وتوجَّهتُ نحو المَقْصَفِ لا ألوي على شيء، أحُثُّ الخطى متفاديا النظر إلى الخلف. اقْتَنيتُ فنجانَ قهوة وفطيرة، وأخذتُ مكاني قربَ النافذة أراقب قطرات المطر، وأحاولُ ابتلاعَ تعقيب "بهار" وقد أمعنتْ في مواجهتي مع المرآة.

لا أحدَ يعودُ بعد لحظاتِ الإدراكِ والتجلّي كما كان.

لم تمضِ إلا دقائق قليلةٌ حينما حَدَسْتُ خطواتٍ حازمةً متوجهةً صوبي، ثم قبل أن أستدير؛ كان سردارُ وعصابتُه يتحلَّقون حولي وهم يتراشقون الغمزات. همَّ "أوزان" أن يسطوَ على محفظتي لكنني منعته. كان سردار يعبثُ بنظارتي الشمسية التي كانت أمامي فوق الطاولة حينما شرع زملائي بالصف يتقاطرون على المقصف. كنتُ يائسا من تدخُّلهم.

الدَّم الذي يسري في عروق سردار يشاركونه فيه. ألأجل عربي نازح سينقُضُون آصرة عرقهم؟؟

- "رايبن"؟ أنت أيضا تشتري نظارات رايبن؟ يصدح سردار في استهزاء مناوبا النظر بين وجهي والنظارات.

قلَّبها طويلا بين يديه يتفحصُها، ثم أضاف في مكر:

- لن تليق بك في كلِّ الأحوال..

أردف وهو يقيسها:

-لماذا تتطاول؟ دع الماركات لأصحابها.. لمن تليق بهم ويليقون بها..

قهقهة الأصدقاء الثلاثة تُدَوِّي بالقاعة، في حين يُتابع رواد المقصف ما يحصل في فضول. حاولت سحبَ محفظتي من يدِ أوزان وقد تمكن من السطوة عليها أثناء متابعتي كلام سردار، لكنَّه جرَّني بقوة حتى اصطدم صدري بحافةِ الطاولة. أردت الوقوفَ، لكنَّ بوراك أقعدني بضربة ملء كفيه على كتفي وهو يصيح:

- لا وقوف أمام الزعيم!

فتحَ أوزان المحفظةَ، وشرع يُخرج ما فيها بحثا عن شيء.

-أين التميمة يا ليبي؟

توقَّف النبضُ في شراييني للحظات، وانصهر جزء من عقلي. كيف تصل بهم الجرأة والوقاحة إلى ذلك؟

كانت علبةُ الشرائح والتمائم الإلكترونية على ملمس يده. كل "رأس مالي" بهذه العلبة. كلُّ تعبي وسهري ومُثابرتي وإبداعاتي بها. كان يُخرج

الكتب والأقلام والدفاتر واحدا واحدا، يتأملُّها، ويلقي نكتة من نكته السخيفة كلما أخرج شيئا منها، في حين وقف الآخران ينتظران توزيع الغنائم. نظرت حولي علَّ أحدا ينتبه لما يحصل فيتدخل؛ لكنَّ الكل كان غارقا في متابعة الأحداث في صمت. تشجعتُ ووقفتُ. كل دماء جسدي تجمهرت فجأة في رأسي وفي وجهي. أزحتُ الطاولةَ بقوة فتدحرجتِ الكراسي، ثم انتزعتُ المحفظةَ من يده بقوة حتى كاد يسقط.، واستدرتُ صوبَ سردار صارخا:

- هات النظارات يا سردار، وإلا تركتُك أضحوكةً لأجيال قادمة.

نظراتُ استغراب وذهول يوزعونها بينهم، لينخرطوا بعدها في ضحك هستيري مُفْتَعَل. لم يعتادوا على مواجهتي لهم. كنتُ كلما تعرضوا لي بسوء؛ غادرتُ المكان في خنوع، وفي قلبي كسرٌ جديدٌ ينضاف إلى كمِّ الكسور التي مناني بها الزمان، فأشجعهم بذلك على أن يستمتعوا بإعادة الكَرَّة، أو يأتيني الفرج بتدخل من أحد الزملاء ينقذني من قبضتهم، لينتهيَ بي الأمرُ في كل مرة بالإدارة، يأخذون مني تعهدا على ألا أُحدث البلبلةَ، دون أدنى تحقيق في الأمر ما داموا يُمثلون السلطةَ والقوةَ، أو هكذا كنت أخمن: قوةُ اتحادهم، وقوة قدرتهم على تزويرِ الحقائق والإقناع بها، وقوة كونهم أصحابَ البلد. كنت أغذي تنمُّرَهم بخنوعي، وأعطيهم باستسلامي وجبانتي ألفَ حق وألف فرصة أن يفعلوا دون أدنى مقاومة. ثلاثُ سنوات بنفس الفصل لم ينادني منهم أحد يوما باسمي. كانت عبارة "ليبي" عندهم تَعْدِل ألف شتيمة، ولربما أضافوا إليها عبارة عربي أو أسمر أو يابانجي، وكأن العروبةَ في حقي سُبَّةٌ، والسُّمرةَ ذنبٌ لا يغتفر، والهجرةَ التي ما اخترتها بإرادتي جريمةٌ أستحق بسببها الشنق

والتنكيل. كنتُ الطرفَ الذي تكالب عليه الضعف من كل صوب وحدب، فلا أهل أستطيعُ الاحتماءَ بهم والاتكاء عليهم في أخذ حقي، ولا جرأةَ لدي كي أستنقِذه بنفسي، وكانوا الطرفَ الأقوى في معادلة غير متكافئة.

هجمتُ على "سردار" أنتزع منه النظارتين. لَكَمَنِي بقوة سقطتُ إثرَها على حافة الطاولة. لا أعلمُ لمَ كانت فرحتي شديدة بهذه اللَّكمة، فكاميرا المقصف قد التقطت كلَّ شيء، وكأنها كانت الورقةَ الرابحة التي كنتُ أنتظرُها، والأَمَارة المحسوسة على إدانتهم وبأنهم كانوا البادئين بالاستفزاز. كانوا حريصين من قبلُ على أن يلعبوا لعبتَهم دون أن يتركوا خلفَهم أثرا للجريمة أو قرائنَ للإدانة، فكان كلامُهم قصادَ كلامي، والغلبةُ لمن يُحسنُ التمثيلَ وفنَّ الإقناع والمخادعة. كانوا فعلا فنانين في ذلك، وكنت الطرفَ الفاشلَ الجبانَ.

سحبتُه من ربْطة عنقِه بقوة، يدٌ تحمل المحفظةَ في إحكام، والأخرى تجرُّه، حتى إذا ما توسطتُ القاعة؛ صرختُ مناديا الحارس الأمنيَّ. تكوَّم الطلبةُ أخيرا بالقرب مني، في حين حاول صديقاه أن يستنْقذاه من قبضتي. لا أعلم من أين استمدَدْتُ كلَّ تلك القوة وكلَّ تلك الجرأة. صوت "بهار" يتردَّدُ صدًى في مسامعي، وصيِّبُ كلماتها التي أمطرتني بها منذُ لحظات فقط بقاعة الدرس تتواثب وتتقافز أمامي؛ تُوري[٦٢] في أحشائي إصرارا وجُرأةً وجسارةً ما عهِدْتها من نفسي من قبل. المخاضُ الذي اسْتَبْطَأْتُه يُعلن توًّا أوان ميلاد جديد.

شعوري بالظلم وبالحيف حوَّلني فجأة إلى ثور جريح جامح. حاولا التهجُّم عليّ؛ لكن باقي الطلبة منعوني منهما. لمحتُ بهار تركض وتنادي

(٦٢) توقد، تشعل.

بأعلى صوتها الحارس الأمني، ثم انطلقتْ لا تلوي على شيء تستدعي الإدارة، في حين صدحَ آخرون بأنهم سيشهدون معي؛ فقد عاينوا الحدث منذ بدايته.

علمت حينها أنني كنت متلبسا بجرائم سردار وعصابته، إذ أنا من كنتُ أغذّي فيهم بخنوعي وخوفي القدرةَ على التسلطِ والعداءِ والاستفزازِ. علمتُ أيضا أنني لم أكنْ أقلَّ منهم ظلما؛ في حق نفسي: لأنني كنت أُعَرّضُها للمهانة بسبب خوفي وجبانتي وعدم قدرتي على المواجهة والدفاع عن حقي، وآخرَ في حق زملائي بالفصل وبالمدرسة حينما كنتُ أسيء الظن بهم فأصنفهم كلَّهم في خانة واحدة؛ خانة المتنمرين العنصريين.

تدخُّل الإدارة كان حازما لصالحي، ولأول مرة أشعر أن أحدا في هذا العالم يُنصفني. راجَعوا الكاميرات، وأخذوا بأقوالِ المتطوعين من الشهود، فكانتْ كلُّ الأدلة مُدينةً لهم.

مرت بدايةُ اليومِ كأثقل ما تمرُّ الأيام، لكنَّ نهايتَه أشعرتْني بخفَّةٍ افتقدتُها من مدة طويلة.

اعتنقتُ أخيرا حريتي..

عند المساءِ، كنتُ أمام لؤي أُواسيه، وأحكي له جُرأةَ "بهار" وموقفَ كلِّ زملاء الفصل، وأُخْبِرُهُ أنني لم أكتفِ فقط بأخذ تعهُّد رسميٍّ منهم على ألا يتعرضوا لي مرة أخرى؛ وإنما أجبرتهم على الاعترافِ بجرائمهم السابقةِ ضدي، وبالاعتذارِ لي على الملأ عمَّا حصل هذا اليوم، وعن كلِّ إساءةٍ قديمةٍ.

❖❖❖

بهار بیرقدار

السر

غريبٌ هذا المساء! يمنحُني من الكلماتِ ما أكتبُ به قصيدة، ثم يسحبُ مني كل النَّص؛ فتكتبُني الذكرى مدينةً بأبراجها، وقلاعها، وياسمينها، وعصافيرها، وخرير ماء سواقيها، وأشجار توتها، وشمسِها، وسنابلها.. وطائراتها المحلقة فوق الرؤوس، والخوفِ النافذ بين الضلوع..

أقفُ بالمنتصف، أنثرُ الأحداث بلا ترتيب، تلك التي انتهتْ، وتلك التي ظننتُها اختفتْ، وتلك المُصِرَّةُ على أن تُباغتني كلما خِلْتُنِي كَنَسْتُهَا من الذاكرة. تلك التي تَناوب فيها الغضبُ والثورةُ والهدوء، وتلك التي تَقَاذَفَهَا الصمتُ والفراغُ، وتلك التي أَلْزَمَتْنِي بالاختيارِ واتخاذِ القرار.

هنا نجوتُ من مِنْجَلٍ مرَّ على حبَّاتِ قمحي؛ لم يَذَرْها في سُنْبُلِهَا، لكنَّها اختلطتْ بدمعِ السماء، فأنْبَتَتْ تحتها حقلا، وقصيدةً، ومرفأً أمنيات، وهناك مناديل مسحتْ دموعي، ثم ما لبثَتْ أن لوحَّتْ بالرحيل لا تلوي على بقاء، وهنالك صرخةُ موتٍ منها كانت الحياةُ، ومنها كان الميلادُ.

كنت أهيِّئُ فِراشي تأهبا للنوم حينما وَمَضَتْ شاشةُ هاتفي مُعْلِنَةً وصولَ سَيْلِ رسائل من أيْهم بمجموعةِ الفصلِ على الواتساب:

"لَكُمْ شُكري وامْتِنَانِي جميعا.

مَوْقِفُكُمْ اليومَ لن أنساه لكم ما حييت.

جزيل الشكر لكل من ساندني. "

لم يَدُرْ في خَلَدي لِلَحظةٍ أن أصْطَدِمَ يوما بسِردار، ولا أن أختبرَ قُدرتي على تحدي نزقه. كنتُ أتجنَّبه، وأتجنبُ كلَّ من تُسَوِّلُ له نفسُه أن يقتربَ من مساحتي الشخصية. مُحاولاتي في تفادِيه باءت اليوم بالفشل.

نظراتُ خيبتِه وأنا أركضُ هنا وهناك؛ أَسْتَحِثُّ الإدارةَ كي تتدخَّل؛ مازالتْ تُلاحقني، ولعنتُه التي صبَّها عليَّ فجأةً ما زالتْ تخترقُ أذني:

- أيُّ دمٍ هذا الذي يجري في عروقِك يا بهار؟ تُساندينَ "يابانجيا"؟ عربيا؟ وتُدِينِينَنِي أنا؟ ابن جِلدَتِك ولسانِك؟ أين قوميّتُك؟

أتنفسُ الصعداءَ وأنا أتلقَّى توبيخَه، ثم ما ألبثُ أن أتلفَّتُ حولي مذعورةً. لا تُوحي ملامحُ أحدٍ أنه قد فهم سرَّ تنهيدتي وأنا أسمعُ هذا الكلامَ. لا أحدَ استطاع كشفَ سرِّ ابتسامتي المُتلعثمة. "جان فال جان"[٦٣] أمام "جفير" وقد اضطرته مساعدةُ العجوزِ أن يكشفَ قناعَه. لِحسنِ حظِّي لم ينكشف.

تتوالى الرسائل على هاتفي بين وجهٍ تعبيريٍّ، وردّ:

-"ليس من البطولة في شيء ما فعلناهُ يا أيْهم. هذا واجب. كان الحق في صَفّكَ."

-"لم تستحقَّ إهاناتهم. أخطأُوا فعلا في حقّك"

"سردار ومجموعته تَمَادَوْا، وكان لا بد أن يُوقَفُوا عند حدِّهم."

ثَوَان ثمَّ يعلن هاتفي عن رسالة جديدة:

" شكر خاص لبهار بيرقدار. "

تدافعتِ العباراتُ بداخلي.. هَمَمْتُ أن أردَّ، أن أستأنف حديثا مع أيْهم شرعتُ فيه صباحا بحجرة الدرس. أن أسأل الجميعَ، وهو بالذات، لم انتظروا كلَّ هذا الوقت راضين بهذا الظلم؟ لكنَّ شيئا أخْرسني فجأة؛ فقرَّرتُ أن أتابعَ الرسائل في صمت. خلق الله الصمتَ كي نتوارى خلفَه.

هممْتُ أن أغلق الشباكَ كي أتفاوضَ مع النوم. جارُنا عمي أبو فادي بِشُرْفَتِهِ على كرسيِّه المتأرجح كما كل مساء. يعيش برفقة زوجته بنفس

(٦٣) اسم بطل رواية "البؤساء" للأديب الفرنسي المشهور فيكتور هيجو.

الشُّقة مذ نزحا من إدلب. ابنُهما الوحيد فادي معتقلٌ بأحد سجون سوريا بعد محاولته الفاشلة أن يعود من تركيا إلى أحضان وطن لَفَظَهُ، وضَنَّ عليه بذراعين يُثْنِيَانِ[٦٤] عنه الأوجاع، وعوضا عن ذلك، ابتلعتْه أقباءُ سجونِه لا يُعلم له خبرٌ.

سعال العمِّ أبي فادي يشقُّ الكونَ من وقت لآخر. "صحتين، صحتين" تردُّ زوجتُه من أقصى الشقة. كلما غص أو سعل؛ ناداها بصوته المخنوق يستعجلها. "دغري، دغري"، ترد في توتر. "دويتو" متكرر كلَّ ليلة.

أنظرُ إليها قادمةً تجُرُّ رجليْها المُكْتَنِزَتَيْنِ، وبِيدها صينيةُ الشايِ رفيقِ سهرتهما اليومي. تختفي مرة أخرى بالشقة لتعودَ بمذياع صغير أحمر، وبِكنزة صوفية تضعها على كتفيْ زوجِها الضَّامرين، ثم تجلس قُبالتَه؛ يَخْتَلِسَانِ اللحظات يُسْكِنَانِهَا كونَهُما الصغير. يحْتسي جرعةَ شاي، ثم تمتدُّ يدُه إلى الجهاز يُشَغِّلُه. صوتٌ يخترقُ السكونَ، يتسرَّب بين حناياي كما نسائمِ الأصيل.

عبثًا أحاول التَّناسي.. عبثًا أتظاهر بالقوة.. عبثا أُصَدِّق زعمي؛ فتهزِمُني ترنيمةٌ.

يُدَنْدِنُ العمُّ أبو فادي معه بصوتٍ نشاز " راجعين يا هوى راجعين. يا زهرة المساكين. راجعين يا هوى على نار الهوى..." يتمايلُ في نشْوة، في حين تتناسل زفراتُ زوجتِه اليائسةِ من هذا الرجوع.

أَرُجُّ أغصانَ الحنينِ ما بين تفاصيلِ الذكرى ونتوءِ النسيان.. أُهَدْهِدُهَا كما طفلٍ.. كما جدائل الطفلة التي كنتُها حينها.. حينما كان للربيع تفاصيلُ لا يُخْطِئُهَا مَنْ يتنفَّس عبَقا، ويَرْتَوِي منْ تراتيلِ الطيرِ،

(٦٤) يصرفان ويردان عنه.

وطقوس لا يُتقنها إلا من تُحَلِّق روحُه بَحْثًا عن وجهِ الصباحِ في تفاصيلِ زهرةِ الربيع.. يتراءى لي جدّي متوسِّطا صحنَ البيتِ بِحَارَةِ البَساتين بِحَلَب. أوراقُ الياسمين المتناثرةُ بالنافورة.. نسائمُ زهرِ البرتقال.. صوتُ أمّي وزوجةِ عمّي بالمطبخِ يُجَهّزانِ العشاء.. والدي وأعمامي يُتابعون نشرةَ الأخبار.. ركوةٌ وفناجينُ قهوة، وحلوياتٌ كانت حظَّنا نحن الأحفاد من جلستِنا متحلِّقين حول جدي؛ يحكي لنا في سخاءٍ عن بطولاتِه حينما كان مُجَنَّدًا بجيش تحريرِ فلسطين.. صوتُ فيروز يتسرب من مذياع جدّي الذي لا يفارقه (راجعين يا هوى راجعين).. يُصارع جدي الحنينَ المتلألئَ دمعةً في عينه. يعتدلُ في جلسته وقد أتيتُ مهرولةً أبحثُ عن حضنِه، أقفُ بالمنتصفِ منتظرةً حفاوةَ الاستقبال التي عودني عليها. تتهلَّل أساريرُه ويترنَّم:

- بهار، يا سرَّ الليل وسِحْرَ النهار.. تعاليْ إلى حُضني.. تعاليْ أروي لك قصةَ اسمِك الجميل. فأركضُ لأختبئَ بين أضلاعِه، ونظراتُ الغيرة تلاحِقني من ابنةِ عمّي ميساءَ. تَحْدُجُهُ جدَّتي، تتوقف فجأةً عن تحريكِ مربَّى الوردِ الذي تُجهّزه لفطور الغد. تتحوَّل عيناها البُنّيتَان إلى بُركانَيْنِ في حالةِ اشتعال. يستعيدُ جدّي فجأة طفولةَ قلبه في قهقهة مُشاكسة وهو يُخَلِّل خصلات شعري بأصابعِه الدافئةِ، ثم ينخرطُ في حَكْيٍ شفيفٍ غير آبِهٍ بالنظراتِ المتوعدةِ:

- كنتُ بالجامعة، أخلُف والدي بالدُّكان كلَّ يوم بعد الدرس. وكانتْ ابنةً لبائع تركي بسوق الحرير، تزوره كلَّ يوم تحملُ إليه الطعام. عيناها، يا سبحان الخلاَّق، بحر متلاطم الأمواج. اخترعتُ لها كلَّ الأسماءِ التركيةِ التي أعرفُها قبل أن يناديها يوما والدُها باسمِها فيُعْفِيني تَعَبَ التَّخمِين.

خطبَها لي والدي منه، لكنَّه أخبرهُ بِقُرْبِ عودتهم إلى إسطنبول، وبأنه لا يستطيع تزويجَ ابنتِه في مبعدِ عنه.

يَتَسَمَّرُ الكلامُ فجأة في أحشائِه. تومضُ عيناه بابتسامةٍ حزينةٍ، ثم يُردِف[٦٥] وقد أَبْحَرَ في زُرْقةِ عينيَّ يَسْتَدْعِي بقايا ذكرى عالقةٍ بين حناياه:

-أسميتُكِ بهارا على اسمِها..

أقاطع حديثَه بسؤال:

-وماذا يعني هذا الاسم يا جدو؟

يحشُرُني بين أضلاعه، يَغْرَقُ في عينيّ.. يتنهَّد:

- معناه يا روح الروح؛ "زهرة الربيع".

أُغْمِضُ جفني، وأبتسم مُنْتَشِيَةً. أَدُسُّ رأسي في صدره.. دويُّ الطائرات ورنينُ الصافرات وصوتُ القنابل تطفئ فجأة تلك الشمسَ الصغيرةَ التي أضاءت في عينيّ.

مخيم قد ابتلعتْهُ الثلوج، ونَزَّتْ من بين الأعمدة وجوهٌ مُتفحِّمة من الصقيع.. طفلةٌ بعينين زرقاوين ترتَجفُ خلفَ كتيبة ثلج، قد تناوبَ الجوعُ والخوفُ والبردُ على قَضْمِ خدودِها ورموشِها..

-بهار! تعالي يا ابنتي أدفئ يديك بين يدي..

لم يُدفئ جَدي يديَّ بعدها أبدا.

❖❖❖

(٦٥) يضيف.

سُعال العمِّ أبي فادي يسْحَبُنِي فجأة إلى غرفتي.

أتنفسُ الصعداء.. أنا الآن هنا، ولا أحدَ يعلمُ سرِّي، وهذا أهمُّ ما في الأمر..

أُغْلِقُ الشباك، وأعْدُو إلى سريري أحتمي بوسادتي.

تلك اللحظاتُ من الفزع والذُّعر والألم؛ تُضطر إلى أن تعيشها وحدَك.. لا أحدَ يستطيع فكَّ عزلتِك ومنحِك الأمان.. لا أحد يستطيعُ استيعابَ ما تعيشه.. سيتفرَّجون على طَلَلِكَ المُحطَّم إن أنت أخبرتَهم.. وستبذُل كلَّ وسعِك كي يُصدِّقوك. كي يُصدقوا أنك فعلا كنتَ تتألم، وبأنَّ ما تحكيه لهم ليس ضربا من التهويل أو الخيال.. الرِّيبة والشك ستنتابهم.. وشكواك قابلة عندهم لكل التأويلات.. منهم من سيجدها فرصته للسخرية منك وللتنمر عليك.. ومنهم من سيمزِّق صورةً جمعتهم يوما بك.. وفي أفضل الحالات سَيُوَاسُونَكَ، وسيخبرونك أن قلبَهم معك.. وسَيَرَوْن فيك "مسكينا " شقيًّا لسبب ما قد أَزْرَتْ[٦٦] به الحياة، وتكالبت[٦٧] عليه الحروبُ، والموتُ، والمِحَنُ.. سيبْتعدون عنك رويدا رويدا حتى لا تُضْجِرَهُم بحكاياتك التي لا تنتهي، ولا تَزْكُمَهُمْ رائحةُ شواء أحلامك المحترقة بفتائل الحرب والرحيل والغياب والعزلة والاختيارات الصعبة.. سَيُرَاقِبُونَك من بعيد وهم يُقَلِّبُونَ أيديهم حسرة على جنَّتك التي أصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ معها الأماني.. ولربَّما تَفَادَوْا كلَّ طريق يؤدِّي إليك.. منهم من سَيَنْتَشِي بهزيمتِك، وسيرقصُ طربا لمرآى ضعفك.. وسيصنعُ لنفسه تمثالا من خزفك المحطَّم، وسيشدو للربيع سيمفونية

(٦٦) استصغرته وحطَّت من قدره.

(٦٧) اجتمعت.

نصرٍ على خشبةِ انهيارِك.. ومنهم من سيجعل من التَّشَفِّي وسيلتَه كي يُخمد حريقا بجوفه طالما اشتعل وهو يراك تَنْبَعِثُ من جديد بعد الحرائق والطوفان، وقِلَّةٌ من ستهُبُّ أرواحُهم تحتويك، وابتسامة حزينة صادقة على شفاههم أن ذلك جهدهم، وأن أقصى ما يمكنُهم فعله؛ أن يُنصتوا إليك، وأن يتفهموك، وأن يطمئنوك أن ما مررت به؛ محنة حقيقية، وما تشعر به؛ ألم حقيقي.. وستكونُ محظوظا إن أَعْقَبُوا ذلك بالشهادة لك بأنَّ قواك العقليَّة والنفسيَّة ما زالت بخير..

ولأَنَّني في غِنًى عن كل ذلك، فلا أحدَ يستحقُّ أن أشركَه أوجاعي وأحزاني وماضيّ العالق بالذاكرة.. لا أحد يستحقُّ أن يعلمَ سِري.. لا أحدَ له حقّ أن يُصَنِّفَنِي، أو يتنمَّر عليّ، أو يتسلَّط عليّ كما حدث لأيْهم..

اسمي "بهار بيرقدار"، وَلَدَيَّ عينان زرقاوان، وهذا وحده كاف كي يدْفعَ عنِّي تُهْمَة الجنسيّة السورية.

❖❖❖

ميساء بيرقدار

سيعود..

لا يمر عليَّ يوم دون أن أمارس هوايتي الجديدة في تصنيفِ كلِّ شيء حولي، فأنسج خيوطا ناظمةً تجمع بين الأشياءِ، والوجوهِ، والمعاني. على سبيل المثال؛ أجمع شارةَ نصر، ووصيةَ جدِّي، والعودةَ؛ مع وجه صديقةٍ لا أعرفُها بعد، لكنَّ أُمنيَتي أن تكونَ، وأن تكونَ على مقاسِ مِزاجي الانتقائي، أَجْمعُها كلَّها في صندوق أسميه "المُؤَجَّلَاتُ إلى حين". أجمع نشرةَ الأخبار، ونصفَ صورةٍ مبتورةٍ لجسد طفل شوَّهَهُ برميل، وعلبةَ قلم حبر ضائع، وروايةً قديمة، مع سؤال عنيد كشفتُ سرَّه قبل أن يُفسد عليّ طريقتي الجديدةَ في الاحْتفاء بالحياة، أضعُها بكيس أسميته "فنُّ الإقصاء". مثال آخر؛ أضم وردةً حمراءَ يانعةً، وقارورةَ عطر؛ إلى جوازِ سفر وبطاقة مواصلات، وكتابٍ أمارس طقوسي في التلكؤ كي لا أُتِمَّه، مع بضعِ قرارات وغَمامة أضعُها في حقيبةٍ سمَّيْتُها "جَسَارَة الاختيار".

فطيرةُ لوز، ومكبسُ شعر، وابتسامةٌ، وبقايا الصَّبْرِ المحشورِ في الأحشاء؛ جمعتُها بسلَّة سمَّيْتُها "النَّاجُون من الطوفان". الليلُ، وقصائدُ الشعر، وبخَّاخ ماء الورد، وعبقُ الياسمين، وحلمُ الانتصار؛ جمعتُها بملف سميته " جرح الكائن"..

وهكذا، تحولتُ إلى احترافِ التَّصنيف بعد أن كنتُ أُمضي يومي لا أفعلُ أكثرَ من أن أُمَرِّرَ الحياةَ أمام عينيَّ كما الشريطِ الأحمر المستعجل للأخبار.

لكنني كلما رمتُ تصنيف ذكريات ما قبل النزوح؛ نزَّت لي صورةُ جدِّي من بين كل الصور، وتراصت دون أن أبذُل جهدا لترتيبها: خَواء تعوي فيه الرياح، وثلجٌ، وظِلٌّ، وغياب، وبندقية مُصوَّبة فوق الرؤوس. أحتار في تسميتها، فيكتب " العجزُ" اسمه بكل عنفوان.. يضطرني إلى أن

أعصِر كلَّ ذاكرتي كي أنسُج لها خيطا ناظما. يُسافر بي عبر المدى، لأحطَّ بحارة البساتين بحلب.

ليلتَها، كنَّا ببيتِ جدِّي العامر نتسامر كما كل اجتماع، لكنَّ الصواريخَ غَارَتْ من لمَّتنا؛ فأمطرتْنا النيران. وعيتُ بنفسي بعدها بمخيَّم تراصتْ فيه قطعُ أثواب متناثرة ملفوفة على أوتاد؛ تحجُب عن وجوهنا لفحةَ الشمس، لكنها لا تصمد عند هبوب ريح أو أمطار. ستةُ أشهر وعشرةُ أيام لا نأكل فيها حينما نجُوع. ندَّخِرُ بقايا الطعام فقط لحالات الإغماء. وأحيانا تسخُو موائدُنا فجأةً بصنوفٍ من اللحوم، يتساقطُ إثرَها بعضُ الموتى، وتصادفُ اختفاءَ بعض القطط أو الكلاب. نستيقظُ مرارا بالليل ليس بيننا وبين السماء حجاب فقد حلقت خيمتنا تعانق القمر؛ فنَبِيتُ ليلتَنا في العراء نُغازل النجوم، أو على صرخةٍ كنَّا بدايةً يتطايرُ لها عقلُنا؛ فلا نفتحُ أعينَنَا إلا ونحنُ أمامَ الخيمةِ مصدرِ الصراخ.. لكننا مع الوقت اعتدْنا على ذلك، وصِرنا نُميِّز بين الصَّرخات. هذه لوفاة عجوز، وهاتهِ لوفاة طفلٍ متجمِّدًا أو وقد هَصَرَه الجوع، وتلك لموتِ امرأةٍ وجنينِها أثناء المخاض.

ثم استيقظنا ذات صباح على غيابِ جدي.

ابتلعته الأرضُ فجأةً فلم نعثُر له على أثر.

في غياب جدّي؛ لا شيء تغيَّر.. لا شيء.. عدا الصمت، وبضع سنبلات يانعات بين ثنايا جرح قديم، وخوف من السؤال المتكرر بتكرار الليالي والأيام: " أين جدي؟"

السؤال لغمٌ، فاجعةٌ، حريقٌ ينقضُّ على الذاكرة؛ ينَتْزَعِ ُمنها هيْبة الفجائع.

تَجرَّعْنا الذُّعْرَ؛ وتلوَّنت أيامُنا بالغياب والفَقْد، وأهْدانا الوجعُ أوجعَ ما عنده. حتى إذا ما شابَ خوفُنا، واعتدْنا فراغَ قلوبِنا من مراسيل تزفُّ لنا البشريات؛ استفقنا فجر يومٍ ودودٍ بدايةَ نيسان على أصواتِ النبَّاشين يقتسمون غنائمَ نبْشِهم، ويتفاوضون على خاتَمٍ مغروزٍ في أصبع جثَّةٍ منسيَّةٍ تحت بقايا الثلج:

- اقْطعوا الأصبعَ! قال الأول.

- احفظُوا للموت حُرمتَه! قال الثاني.

- وهل حفظتِ الحياةُ حرمتَنا كيْ نُبْقِي حرمةً للممات؟ ردَّ الأخير.

تشبَّثَ كلٌّ منهم برأيه. اشتبكتِ الأيادي، وتعالتِ الأصواتُ، فاحتاجوا إلى حَكم يَفْصِل بينهم.

عَدَوْتُ مع من عَدَوْا، وَوَلْوَلْتُ في طريقي مع من وَلْوَلُوا، وتنسَّمتُ عبقَ مسكٍ فاح فجأة في المكان. جُثَّةٌ مُسجاة لعجوز؛ قد غدر به الثلجُ ذاتَ عاصفة رعناء؛ فابْتلعه. ثم لما غُصَّ بالجثة، وضاقت جوانِحُه بها، وأصابتهُ لعنةُ هذا الغدر؛ قرَّر فجرَ هذا اليوم أن يُكَفِّرَ عن جريمته بِبَعْثٍ ونُشُور. لم يُحَرِّضْ دابة الأرض كي تأكلَ منْساتَه، لكنَّه أرسل النباشين يَدُلُّون على موته.

كانت شجرةُ السرو قد أرختْ عليه ظلَّها، ونسجتْ يمامةٌ عشَّها بين الأغصان. بالقرب من الجذع؛ حذاء مترهل، وساعةُ مِعصم مشروخة، وحزامٌ جِلدي متآكل، موزعة بِعَدْلٍ بين النبَّاشين. صَرَخَ والدي ملء الفزع لمرآه، فَعَوَتِ الذئابُ، وزَمْجَرَتِ السماء، وحَنّت أغصانُ السرو؛ فصنعتْ له تابوتا.

هدَّأ العثور على جدي كلَّ تلك الصراعات المعتملةِ في صدري، وأطفأتْ دموعُ اللقاء تلك النيران المتأججة أثناء غيابه. كان وجهُه متلألئا كقمر المنتصف، ساكنا يوزّع الهدوء، باردا كالموت. عيناه مفتوحتان تحدِّقان في المدى، تفرُّ منهما أسراب طيور وفراشات، وبسمتُه المتكلسة تتوعَّد الثلج الغدار، وتسخَر في شموخ من الموت.

حملناه إلى خيمتنا. سجَّيْنَاهُ قرب الوتد. هرعت النساءُ تملأ قواريرَها من عطرٍ ضوَّع المكانَ، في حين تعالت أصواتُ الرجال يتجادلون فيما سيصنعونَه بالجثمان:

- الثلج قد غسَّله، لا يحتاج إلى تطهير. قال أبي في حزم.

- بل نُغَسِّله ونكفِّنه ونُصلي عليه بالسور الطوال، ثم ندفنه تحت شجرة السرو حيث كان نشورُه. قال عمي جابر.

-وهل الشهداء يُغسَّلون؟ عاتبه عمي ملهم.

-لعلَّه لم يمتْ. جرِّبوا أن تُدفئوه الليلةَ وانتظروا الصباح. أردفتْ بهارُ في براءة الصغار.

طال جدالهم إلى أن حل المساء.

ارْتجف ضوءُ شموعِنا تلك الليلة، وسُمع لِجُدْرانِ الخيمةِ أنينٌ كأنين طفل. التَفَفْنا حول ضوئِها المرعوبِ نقرأ بقايا وصيته التي عثرْنا عليها بجيبه:

"حينما تتوقَّفُ الحرب؛ لا ترحموا موجا ولا حبَّة ثلج."

انطفأ الشمعُ فجأةً. سمعنا أزيزا كأزيز المِرجل. اهتَزَّتِ الخيمةُ. غادرتْ روحُ جدي تقودُ العبقَ لزهره، والظلالَ لأشجارها، والنورَ للفجرِ التَّائه، والبسمةَ لشفاه الأبرياء.

عند الصباح، حَمِدَ قومي السُّرى، ثم انطلقوا في موكبٍ مهيبٍ صوبَ مسجد الزيتون يزُفُّونَ جدِّي للحور. غير بعيد عن مدخل المسجد؛ عصابةٌ ملثَّمةٌ بلباسٍ عسكري قد تناثرت بالبَاحة تنصب كمائنَها. أرعبهم النورُ الذي كان يلفُّ النعشَ؛ فصوَّبُوا بنادقَهم نحو الجثمان.

لم أرَ بعدها والدي. لن أراه أبدا.. قاوَمَهم. أوجعهم سبًّا؛ فأوجعوه تنكيلا. وجدناه معلَّقا بشجرة السِّرو ذاتِها، قد نَخَرَ التعذيبُ جسدَه، وعَلَّمَتْ على عينيه وخدوده بقايا السَّجائر. لم يستطعْ أحد الاقتراب منه لأيام. بقيَ مثل لُغم يُخشى انفجارُه إلى أن اختفَتْ من قُربه زبانيةُ العذاب. دفنَّا بقايا جسدِه تحت نفسِ الشجرة.

عمِّي جابر وعمي ملهم؛ قيل لنا أنهما قد سُجنا. لا أحد بإمكانِه أن يُثبتَ أو ينفيَ ذلك.. لا أحد يستطيع التكهُّن بما آلت إليه أحوالُهما. كلُّ ما نستطيع الجزمَ به؛ ألا أحدَ يعودُ من سجونِهم.. لا أحدَ يعود منهم..

بكيْنا طويلا، وما نَفَعَنَا حزنٌ ولا بكاءٌ. لم نَبْكِ يومَها على منْ ماتوا. بكيْنا على الغائبين.. على العالِقين بين أيديهم.. على الباقين قيْدَ الوجع يَسْتَجْدُونَ الحياة..

بقينا أربعتُنا بالمخيم بعد هذه الأحداث.. امرأتان وبنتاهما هنَّ آخرُ منْ تبقَّى من عائلةِ بيرقدار. أمي، وزوجة عمي جابر، وابنتهما بهار.. وأنا.. انتظرنا رجوعَهما.. انتظرنا طويلا أن تتكرَّر المعجزاتُ.. أن تَلْفُظَهُما الأرض يوما كما لَفَظَ الثلج جدِّي؛ فلمَّا طال انتظارُنا؛ تأهَّبْنا للرحيل.

❖❖❖

صريرُ شبَّاك الغرفة المحاذية لغرفتي يعلن عن تأهُّب بهار للنوم. يومُها كان طويلا، مليئا بالأحداث. تابعتُ حديثَها بشغفٍ عند العشاء

تروي لنا ما حصل. لمعةُ فخر نزَّت من عيني والدتها المُنْهَكَتَيْن، في حين أرغمتني نظراتُ والدتي دائمة العتاب على أن أتساءل مرة أخرى إن كنتُ أمتلكُ مثل جرأةِ بهار وقدرتها على أن تَخْرُجَ من كل معاركها منتصرةً. أبدا لا تُقلع أمي عن مقارنتي بها.. أبدا لا أَسْلَمُ من مقارنةِ نفسي بها مهما حاولتُ. انشغلتُ بالطعام متفاديةً كل العيون، وفي ذهني ألفُ صورة جديدة وألفُ خَيْطٍ ناظِم لممارسة هوايتي الجديدة في التصنيف.

خطوات وئيدةٌ بالممرِّ صوبَ غرفةِ بهار تطمئنُّ عليها كما كلِّ يوم قبلَ النوم.

أعرفُ هاته الخطوات. اقْتَفَيْتُهَا مرارا.. باغتُّها تُمارس عادتها اليومية كل صباح.. تتسلَّل ساعة غَفْوَةِ الكون بُعَيْدَ السَّحَر، تُسابقُ الرملَ والموجَ وخيوطَ الشمس.. نفسُ الصخرة التي صَمَّمَتْها موعدًا للِّقاء؛ بها تَعِدُه سرًّا على ألاَّ تنْهزِمَ بغيابِه، وهي نفسُها المُغْرَقةُ بِهَطْلِ عينيْها وهي تُقاوم اليأسَ..

كنتُ أتبعُها خلسةً كلَّ يوم.. أُتابعُ يديْها المُرتَعشتيْن وهي تُطعم نورسا، وتغسلُ صخرةً، وتكتبُ اسمَ عمّي جابرٍ في كل مرّة فوقَ الرّمل.

تُكَرِّرُ الكتابةَ كلَّما محاها موجٌ.. تُوقظ الشمسَ، ثم تجرُّ خُطى عَوْدَتِها وهي تردِّد:

-سَيَعُود.. حتْما سَيَعُود.

❖❖❖

فهرس

رنا "كِسْرة خبز"..... ٥

جاسر "آذارُ وُلِدَ هذه السنةَ مرّتين"..... ١٩

تميم خطيب "لا شيء يستحق"..... ٢٧

لؤي خطيب "علاقة مسمومة"..... ٤١

مهدي "انتقام"..... ٥١

أيْهم "اعْتَنَقْتُ حُرّيتي"..... ٦٣

بهار بيرقدار "السر"..... ٨١

ميساء بيرقدار "سيعود"..... ٩١

فهرس..... ٩٩

❖❖❖

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

آذار
وُلِد هذه السنة مرتين

"يومها، كنا نجلسُ أربعتُنا على حافةِ البوسفور، أنغامُ كَمَانٍ وساكسفون خلْفنا تُحيِّي شمس الغروب. شابان تركيان يسخوان بلحن تركيّ حزين، وبضع مارة يقفون من وقت لآخر يَحْتَفُون بالأشجان، وحديثٌ شفيفٌ بيننا كما كلّ أحاديثِ الأصدقاء. الليل ينزح على أديمِ البوسفور في انْسياب، والشمسُ المُغتالةُ تُريق آخر أوردتِها على صفحةِ الماء، فَتَخْتَلِجُ بِلَحْنِ الموجِ، وعزْفِ الكَمان، ونعيقِ النّوارس التي كانت تحوم حول الزّوارق الصغيرة المُحَمَّلة بوجبةِ صيد. عَلَا نُواح مركبٍ يعلن عن الرحيل. بالضبط في الوقت الذي سلَّم فيه أشرعتَه للرياح؛ نورس يلاحق حظَّه من عطايا البحر نهايةَ يومه المتعب.. يصطدم بالشّراع؛ فَيَخِرُّ بالقرب منا تُلَوِّنُ ريشَه الدماءُ.

مات.. لن ينجو.. الاصطدام كان قويا.. يقول تميم.

جناحُهُ كُسر، عاجزا صار عن الطيران.. يردُّ عليه لؤي.

سيغرق.. سيكون لقمةً هنيئةً للحيتان.. يُعَقِّب إيفان."

مركز الثقافة العربية
للنّشرِ والتّدريبِ والإنتاجِ التّعليميِّ والثّقافيِّ
Arab Cultural Center – Türkiye / Istanbul
arabculturecenter@gmail.com
+90 552 609 20 22